حول مائدة المعرفة

تفسير وتقريب لكتب مأثورة وأفكار خالدة

إشراف
الدكتورة سهير القلماوي
عثمان نوية
ثروت أباظة

١١

ألوان من الحروب

- فلوبير : سالمبو
- ثوسيديدس : حرب البولوبونيز
- سرفنتيس : دون كيخوته
- آرنولد : سهراب ورستم
- سير نورمان آنجل : الوهم العظيم

ترجمة
الدكتور منسى يوسف

تفسير وتقريب لكتب مأثورة وأفكار خالدة

حول مائدة المعرفة

١١

بإشراف
الدكتورة سهير القلماوى
عثمان نويه
ثروت أباظه

نشر هذا الكتاب بالاشتراك
مع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
القاهرة ــ نيويورك
اكتوبر ١٩٦٥

ألوان من الحروب

ترجمة

الدكتور منسى يوسف

تقديم وتعريف

الدكتورة سهير القلماوى

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

تقـــديم

تذكرنا هذه المجموعة من الكتب بالمثل القـــديم الذى يقول : « أما السلم فهو حلم العقلاء ، وأما الحرب فهى تاريخ الانسـان » .

وهؤلاء خمسة من العقلاء ، بل من خيرة العقلاء ، يحلمون بالسلم فيصورون حروبا تختلف مكانا وزمانا وأهدافا ووسائل ونتائج ، بل تختلف حقيقة وخيالا ، ليقولوا بما صوروا من هذه الحروب ان السلم هو حقا حلم العقلاء ، ولكنهم قالوا بوعى أو دون وعى ، ولكن الحرب هى تاريخ الانسان .

ولكل من هؤلاء الكتاب طريقته فى تصوير الحرب والصراع ، كما أن لكل منهم طريقته فى تبليغ رسالة السلام للانسانية .

هذا أقدمهم ثوسيديدس يصور حرب البولوبونيز بين أثينا وأسبرطة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، فيختار طريقة العـــالم الباحث الدقيق الذى يريد أن يعرف لماذا وقعت هـــذه الحرب . لماذا أقدم عليها الأثينيون فجنوا على انفسهم وجروا على قومهم دمارا وهزيمة ما كان أغناهم عنها لو أنهم لبوا نداء أسبرطة للصلح؟ ان للتاريخ أسرارا ، ولابد من المعرفة ، فعسى أن تكون معرفة الماضى الدقيقة مفتاح المستقبل . ولكن المؤرخ اليونانى الكهل مؤمن بالقدر . ولقد أراد القدر أن تنتحر اثينا وتقضى على نفسها فى حرب أهلية .

وهذا فلوبير الفرنسى فى القرن التاسع عشر ، ومعاصره آرنولد الانجليزى ، يتفق كل منهما مع الآخر فى اختيار موضوع تاريخى قديم ، بعكس زميلهما اليونانى القديم الذى أراد أن يؤرخ لعصره .

ترى هل كان مزاج القرن التاسع عشر يدفع الى استلهام التاريخ الموغل فى القدم ؟ ان فلوبير يصور الحرب البونية بين الرومان وقرطاجة . وآرنولد يصور حروب الفرس الأسطورية . وكل منهما يدير كتابه حول بطل أو بطلة . وكل منهما يمثل بهذا البطل صورة ضياع الانسان فى الحرب كما كان ضائعا بالفعل فى المجتمع من حوله. وهذه تقارير الحرب البونية عارية جرداء يكسوها فلوبير حياة فى « سالمبو » . وهذه أساطير حرب الفرس مع التورانيين وقد ملأها المؤرخون القدامى والشاعر الفارسى الفردوسى أساطير وخرافات ، فيخرجها آرنولد قصيدة ملحمية رائعة . ولهذا التاريخ القديم سحره وجماله ، ولذاك التاريخ الأسطورى جلاله وغناه . أما فلوبير فيصور مأساة الانسان الفرد فى خضم حرب وحشية بربرية جرتها أمة غارقة فى الملاذ غافلة ، تؤجر المرتزقة ليذودوا عن حدودها ، فيثورون عليها بعد حرب واحدة ، ويضعفونها لتصبح لقمة سائغة للرومان الأعداء . وفلوبير يؤمن هو الآخر بالقدر ، ولذا اراد القدر أن تجر قرطاجة على نفسها هذا الدمار ، فكان الرومان يد القدر ، وكان المرتزقة وسيلة يد القدر للوصول الى النهاية المحتومة .

وآرنولد يصور أيضا مأساة الانسان الضائع فى مجتمع فقير فى روحه ، وقد عكسها على أسطورة « سهراب ورستم » التى تمثل مأساة الانسان المتحرق الى اللقاء الروحى ، فما يكاد يصل حتى ينزل القدر ضربته القاضية بالانفصال . كم من فرصة كان يمكن لرستم أن يعرف فيها ابنه فيجنب نفسه الشكل البطولى الحزين ؟ ولكنه القدر ! .

وهذا سرفنتيس الأسبانى ، يصور أيضا مأساة الانسان الضائع وسط قيم زائفة فى عصره عن طريق حرب يخوضها « السيد ، العبقرى ، دون كيخوته » فارسه المخترع ، رجل الخير غير المفهوم

فى زمانه . حرب هدفها أن يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا . وفى سخرية لذيذة يحارب القدر مرة ويحاربه القدر مرات . ولكنه يرتفع بخياله الفارس فوق القدر وفوق الواقع ، ويرتطم بأرض الواقع ليعلو أكثر وأكثر فى عالم الخيال ، ثم تنتهى حرب الفارس العبقرى، بفشل ، فلعله من شيمة الفرسان أن يؤمنوا بالحظ وبالقدر .

أما آنجل ، فانه بعلمية القرن العشرين الذى لا يلجأ الى خيال ولا يستلهم تاريخا قديما أو أسطورة ، يكتب عن « الوهم الكبير » عن الحرب التى ظن الناس أنها وسيلة ربح اقتصادى أو رواج مادى أو حل لمشكلات السياسة ، وهى أبعد عن أن تكون وسيلة الا للشر . وبالحجج وبالأمثلة التى قد لا نوافقه عليها كلها يبرهن على عدم جدوى الحرب . وكما يقرر الحوار « تقود مقدماته غير السليمة الى نتائج لا شك أنها سليمة » . انه قطعا لا جدوى فى الحروب ، ولكن لماذا يستمر الانسان فى الحرب ؟

بخمس وسائل : بالتاريخ الدقيق ، وبالتاريخ الذى اكتسى أثوابا زاهية من الخيال ، وبالخيال الصرف ، وبالأسطورة ، وبالأسلوب المنطقى التقريرى يكتب خمسة من الكتاب روائعهم ليقولوا كلمة واحدة : الحرب شر . ويتفق ابن القرن الخامس قبل الميلاد وابن القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر والقرن العشرين على أن الحرب شر ، وأن هناك طريقا الى السلام ، ولكن مرة أخرى نجد المثل القديم يصدق : « أما السلم فهو حلم العقلاء، وأما الحرب فهى تاريخ الانسان » .

سهير القلماوى



Salammbô

لفلوبير

Flaubert

فلوبيـــر

جوســـتاف فلوبير ـ (١٨٢١ ـ ١٨٨٠) روائى فرنسى ولد بمدينة « روان » لأب طبيب بمستشفى المدينة وأم من أسرة معروفة . تعلم الطب ثم هجره ليؤلف الكتب . سافر الى ايطاليا والشرق . عرف أكثر كتاب عصره ، وكان يلقاهم فى باريس ويشاورهم أحيـــانا فيما يكتب . عاش أكثر حياته فى عزلة فى ضواحى روان ، وبها مات .

أهم مؤلفاته « مدام بوفارى » سنة ١٨٥٧ . أحدثت ضجة لأنها من الأدب المكشوف ، ولكنها قدرت بعد ذلك ، وبخاصة من حيث أسلوبها الواقعى ولغتها الدقيقة ، حتى أصبحت معلمـــا فى تاريخ الرواية العالمية .

له أيضا « سالمبو » سنة ١٨٦٢ ، و « التربية العاطفية » سنة ١٨٦٩ ـ و « اغراء سانت أنطوان » سنة ١٨٧٤ ، وهى تأملات فلسفية دينية .

نشر فى حياته « ثلاث قصص » سنة ١٨٧٧ ، فى مجلد واحد ، هى : « ســـانت جوليـــان » ، و « هيروديـاس » ، و « قلب ساذج » . قوبلت بفتور ولكنها أثرت فى موبسان وقلدها واعترف بدينه لها . ونشر أيضا مسرحية « كانديدا » سنة ١٨٧٤ التى فشلت فشلا ذريعا .

وبعد موته نشرت له رواية لم تكتمل « بوفار وبيكوشيه » سنة ١٨٨١ ، يسخر فيها من غفلة البرجوازية وغبائهم . كذلك نشرت له مذكرات عن رحلة بعنوان « عبر الحقول والشطآن » جمعت بعد موته ، كما جمع له كثير من مراسلاته ، وبعض الأعمال التى ألفها فى شبابه ولم يكن راضيا عنها فلم ينشرها فى حياته .

تعريف بالكتاب والمؤلف

فى بيت صغير فى ضواحى روان عاش چوستاف فلوبير اكثر ايام حياته منعزلا عن الناس يتأملهم من خلال حاضرهم الذى يراه ، ومن خلال ماضيهم الذى يتخيله عبر التاريخ ، ويدرس الواقع الحالى والواقع الماضى المتخيل ، بدقة الباحث العالم ، دقة من يؤمن بأن الشىء الصغير فى عالم الانسان كالشىء الكبير ، كلاهما حرى بالتأمل ، خليق بالوصف . ولقد عانى فى هذه العزلة من مرض لازمه منذ طفولته استدعاه أبوه من أجله من باريس ليعنى به فى روان مسقط راسه . كما رحل الى ايطاليا والى الشرق مع « مكسيم دوكان » فى سبيل الاستشفاء منه . ولم يترك لنا ما يدل على هذا المرض الا أخبارا متناثرة ، ولكن الألم العيقرى الآخر ، ألم الابداع ؛ من خلال طبيعة فنية متناقضة هو الذى خلده لنا فى آثاره . مزيج عجيب من الدقة الواقعية والتخيل الرومانسى اضطره أن يرفع الفن فوق الواقع بتحمس مستغرق ، يشبه تحمس المؤمن واستغراقه وهو يتأمل الكون وخالقه ، واضطره فى الوقت نفسه أن يتعصب لدقائق الواقع تعصب المؤمن الذى لا يرى من فرط الايمان الا ما يؤمن به . وهو نفسه يصف فى رسائله هذه الطبيعة المزدوجة ؛ طبيعة فلوبير المحب للغنائية المفتون بالتحليق الرومانسى، وطبيعة فلوبير الذى يكلف بأن يحفر ويحفر فى عناء دائب ليصل الى أغوار الواقع . ولكنه لا يريد من هذه الأغوار الا جوهر الحقيقة الذى يحاول أن يصفه بدقة العالم .

وكان هذا سببا فى أن يعكف فلوبير سنين طويلة على العمل الأدبى الواحد قبل أن يخرجه للناس ، وهذا أيضا ما جعله يعرض

اعماله على الأصدقاء من الكتاب ويستطلع رأيهم فيما كتب ويناقشهم فيه . يقال أنه قضى خمسة وعشرين عاما يكتب « اغراء سانت أنطوان » . ويؤثر عنه أنه كان يقضي أسبوعا كاملا فى كتابة صفحة واحدة . ولم يقنع أبدا بجملة تعبر « تقريبا » عن معناه ، وانما كان يأبى الا أن يصل الى الجملة التى تعبر « بدقة » عن المعنى . وكانت هذه ميزته على كتاب القرن التاسع عشر ، بل على كتاب كثيرين من كل عصر ، فهو أقلهم غموضا وأندرهم قصورا فى أسلوبه . وكلفه هذا عكوفا طويلا صابرا عنيدا على عمله ، كما أدى هذا الى أنه لم ينشر أعمال الشباب ، وانما نشرت له بعد موته لأنه لم يكن يرضى عن نفسه بسهولة . وانعكس هذا على حياته الخاصة فأحب واضطر الى ترك من أحب لأن روايته حلت من نفسه ومن وقته محـل حبيبته ، وعاشر الناس واختلط بهم ، ثم اضطر الى حياة العزلة ، وراسل «لويز كوليه» وكاتبها يوميا تقريبا ، ولكنه فصل نفسه عنها بصرامة أثرت فى نفسه آثارا بالغة ، وكان لصديقه مكسيم تشجيع على هذا من أجل فنه . وناقش هوجو وزولا ودوديه وترجينيف ، وكانت له مناقشات ومراسلات مع چورچ ساند التى عابت عليه عدم اهتمامه بالشئون العامة من حوله . ولكن بعد سنة ١٨٧٠ (وقد أثرت الحرب فى نفسيته) تخفف من كل الصلات شيئا فشيئا حتى ترهب لفنه .

ولم يكن يجد نفسه بسهولة فيما يكتب ، ولذلك نراه يؤلف عدة مؤلفات فى آن واحد . يبدأ « مدام بوفارى » رائعته المعروفة ثم يعود الى « التربية العاطفية » ، ثم يعود الى « بوفارى » ، ثم يبدأ « سالمبو » ثم يتركها لينهى « بوفارى » ويخرجها ، وهكذا . لأنه اذا غرق فى « بوفارى » أحس الشوق الى الخيال والرومانسية فيشبع هذا الشوق بأجواء « سالمبو » ، فاذا غرق فى مناظرها الحية وألوانها الزاهية ووقائعها التى يرسمها من التاريخ كيفما أراد لها أن ترتفع الى آفاق الخيال الخصيبة الرائعة ، حن مرة أخرى الى واقع

مدام بوفارى الكالح البسيط : فيعود الى واقعه يدقق فيه بشغف المحروم الذى عثر على ضالته ، يصف مواقف الحرب الوحشية الرهيبة بكل فخامتها وجلالها فى « سالمبو » ليعود يصف الصيدلية فى « بوفارى » بكل دقائقها الباردة . لذلك مثل فلوبير عدة مزايا وكان رائدا لعدة مدارس ووجد فيه الرومانسيون والواقعيون والرمزيون خصائص فذة رائدة فى كل هذه الاتجاهات معا .

وكانت قراءاته الخصبة تغذى فيه هذا . فيعكف على « دون كيخوته» لسرفنتيس ليسبح فى خيالها المحلق ، ثم يعكف على كتب التاريخ والآثار ليقرأ عن الحرب البونية ليدقق فى وقائعها ويغرق فى واقعها ، والعجيب أنه استلهم دون كيخوته الخيالية « مدام بوفارى » الواقعية ، واستلهم التاريخ التقريرى الواقعى « سالمبو » الخيالية .

لقد شهرته « مدام بوفارى » التى اهتم الناس بموضوعها وبالقضية التى رفعت عليه وعلى الناشر لأنها رواية تمثل الأدب المكشوف أو هى غير خلقية . ولكن الضجة هدأت وحكمت المحكمة له ولناشره ، ثم أخذت « مدام بوفارى » تأخذ مكانها الحق من الدراسة الأدبية ، فاذا قدرة فلوبير تتجلى فى جملة مناح ، فمن رسمه للشخصية من خلال وصف واقعها الدقيق الملامح والحركات حتى لقد لقب بأعظم رسام للوجوه أو الشخصيات ، الى قدرته على السخرية من البرجوازية المتمثلة فى البطل « هوميه » الغبى الغافل عن كل ما حوله الغارق فى عادات وتقاليد برجوازية زائفة ، تلك الشخصية التى أسماها باسم آخر فى رواية خصصها للسخرية من البرجوازية « بوفار وميكوشيه » سنة ١٨٨١ ، وان لم يكملها (نشرت بعد وفاته) ، الى قدرته على تأمل تفصيلات الواقع بدقة حين يصف بيت مدام بوفارى ، أو الصيدلية ومحتوياتها ، وهو فى كل هذا يسعى لا الى الحقيقة أو الواقع ، وانما الى الحق والجوهر

كما قيل عنه . انه يصور فى صدق متزمت فى صدقه ، فاذا الرواية لأول مرة تتجه عالميا بعنف نحو الواقع مؤمنة بأن رسالتها هى تأمل الواقع وتصويره بدقة حيادية أمينة . ومن هنا أثرت « بوفارى » فى كاتب كألفونس دوديه بل فى زولا نفسه .

ولما نشر « اغراء سانت أنطوان » قابلها النقاد بالبرود الذى قابلوا به « التربية العاطفية » ، ولكنهم وجدوا فيها فيما بعد مادة وفيرة لدراسة بذور الرمزية بنفس القوة والوضوح اللذين توجد بهما الواقعية فى « مدام بوفارى » .

أما « سالمبو » رائعته ، التى أصدرها سنة ١٨٦٢ ، فلقد قابلها النقاد ببرود ، ولكن الجمهور أقبل عليها اقبالا عوض فلوبير كثيرا من الثقة بنفسه . انها نسيج فذ من التاريخ والخيال والواقع. انها تعرض فى فيلم استعراضى ، جبار فى ثرائه وعظمته ، صورة مدينتين متناحرتين : احداهما تقوم على البطش والغيبية والاستغراق فى الملاذ وتضطر الى أن تؤجر بأموالها المرتزقة من الجند ليدافعوا عن أرضها ، والأخرى جادة صارمة تعتمد على أبنائها فى بناء امبراطورية واسعة خارج الحدود الوطنية . ويثور الجند المرتزقة على قرطاجة بعد أن مكنوها من نصر أول فى الحروب البونية ضد الرومان . ويستغل الرومان الظروف ويغيرون فيقع الاستبداد الباطش اللاهى تحت معاول النظام المؤمن بالأمة وبالامبراطورية . وفى خلال هذه الحروب يحيا البشر حياتهم اليومية بين حرب وأخرى بل فى اثنائها ؛ حياة الصلاة فى المعابد وتقديم القرابين للآلهة الغاضبة والى جوارها حياة الحب الباطش المعذب وحياة التقاليد والعادات والجرائم والانتقام .

و « سالمبو » أميرة قرطاجة الراهبة بنت « ها ملكار » حارس معبد « تانيت » ، وهى خادمة المعبد أيضا . و « تانيت » هى الهة الخصب الأنثوى تمثل الأمن والاستقرار ، وينافسها « مولوخ »

اله الاغتصاب الذكر : اله التخريب والانتقام وهو اله المرتزقة . والراهبة الأميرة الشابة يحبها « ماثو » زعيم المرتزقة الثائرين على مستأجريهم . وهو عملاق ليبى فظ الطباع ، كما يعشقها أيضا « نارهافآس » الدنيء السافل من المرتزقة . وينقض « ماثو » على المدينة ويسرق نقاب الالهة « تانيت » . ولابد « لسالمبو » من أن تذهب الى الغاصب لتسترجع نقاب العفة حتى تهدأ ثائرة الآلهة فيعود الحظ الى قرطاجة وتكسب الحرب بعد النحس الذى أفقدها الموقعة السابقة . وتذهب « سالمبو » الى خيمة « ماثو » وتدفع الثمن وتسترد النقاب وتهزم قرطاجة المرتزقة ويدفع « ماثو » الى المقصلة . وفى منظر وحشى يجر « ماثو » أمام عينى « سالمبو » الى حتفه . ولكن « سالمبو » بنت « هاملكار » تموت هى أيضا من العذاب . أما أهل قرطاجة فانهم قالوا انها ماتت تكفيرا عن فقدها نقابها فى سبيل نقاب « تانيت » أى تكفيرا عن فقدها عذريتها . وأما الرومانسيون قراء الرواية فقد اختاروا أن يقولوا انها ماتت من بشاعة ما رأت عندما جرجروا حبيبها « ماثو » الشاب القوى الجبار أمامها وأخضعوه لأبشع أنواع العذاب .

ومن خلال هذا الحب الباطش المؤسى تتوالى آلاف الأحداث والمناظر والمواقف وتتزاحم . « هاملكار » الذى يبدل ابنه « هانبال » بابن عبد يدفع به الى سدنة معبد « مولوخ » الثائرين ، بدلا من ابنه ، غير حافل بعواطف الأب العبد ، وتدوى صرخة العبد «ولكنى أبوه . أنا أيضاأب» . ولكن اله الأعداء « مولوخ » غاضب ولابد من ابن « هاملكار » قربانا ولا بأس من ابن العبد اذا ما زين مثله وارتدى ثيابه وزيف على الأعداء على أنه الابن المطلوب . جبروت وزيف وقيم انسانية مهدرة وغيبية وغرق فى الملاذ ، كل هذا ينخر فى جسد مجتمع . أيمكن أن يعيش بعد ذلك هذا المجتمع . ان التاريخ يقول :لا . والعدل الانسانى أيضا يقول :لا

وهكذا تصور « سالمبو » صراع مدنيتين ، وصراع مدنية داخل نفسها ، وقد ثار عليها مستأجروها من الجند ، وصراع آلهة : « مولوخ » و « تانيت » ، وصراع حب فى نفس « سالمبو » .

هذه هى حكمة الحروب البونية التى صورها فلوبير من خلال مناظر ومواقف وشخصيات هى مزيج من التاريخ ومن فلوبير نفسه . ان « سالمبو » صورة أخرى من « اما » « مدام بوفارى » انها مضيعة فى الحب والمجتمع المزيف يقهرها والواقع من حولها يقتلها . واذا كانت اما بوفارى تفشل فى حبها فان حظ « سالمبو » أفظع من الفشل .

وأخذ المؤرخون والأثريون على فلوبير مآخذ شتى ، مخالفات تاريخية ، معلومات خاطئة ، أشياء لم تكن ، بعض مواضع لا وجود لها ، شخصيات مخترعة أو محرفة الخ ، ولكن رغم كل هذا ظلت « سالمبو » وحدها هى الصورة الحية الباقية لهذه الحروب بكل ألوانها الزاهية ؛ وبهتت الى جانبها كتب المؤرخين وتحقيقات علماء الآثار . انها وحدها التى استطاعت أن تنقل حركة هذه الأحداث بكل واقعيتها أمام أعيننا كلما قرأنا الرواية . انها تسمعنا قرقعة العظمة ، وصرخات العذاب ، وجبروت السلطان ، وعتو الآلهة ، والى جانبها أنات الذلة وصراخ الظلم ووحشية البدائيةالدافقة وعذابات الحب. ومن بعيد تطل حضارة صامدة جديدة تأتى لترث حينا حتى يأتى اليها من يرثها .

لقد قالوا ان « سالمبو » رواية ذات شخصيات مسطحة تمثل ناحية ثابتة أو رأيا خالصا ، ولكنها لا تتطور ولا تمثل جوانب أخرى من الرأى . ان يكن فى هذا بعض الحق فان الحياة ، والمناظر ، والأحداث ، والجماهير — كلها لم تكن مسطحة بحال من الأحوال . انها بارزة ومحفورة بكل الأبعاد ، وبكل الألوان لتطابق الحياة بتدفقها الرائع مطابقة فذة . ولقد عابوا على فلوبير وحشية

المناظر وقسوتها : منظر أربعين ألفا من الجند المرتزقة وهم يموتون جوعا ، وقرابين الأطفال الحية ، وتحلل أجساد الجند الملقاة على أرض المعركة الذى يصفه بدقة مَن درس الطب فى صباه ، ولكن عصر فلوبير يختلف عن عصرنا ، ثم ان هذه المناظر لم تكن توصف لذاتها ، وانما هى تأتى لتعكس الحقائق الأهم والأكبر . ولعل انعدام الوحشية فى مجتمع القرن التاسع عشر هو الذى جعله يبالغ فى وصفها ليقنع بها ، كما فعل فى وصف قناة الماء ليقنع القارىء بوجود شىء هو على يقين أنه لم يكن يمكن أن يوجد على هذا النحو فى ذلك الزمان .

ان فلوبير بوصفه الدائب ، الصابر ، الذى يعنى بالصغيرة عنايته بالكبيرة ، وبسخريته العميقة المتفانية فى احتقار الغباء وغلظ الطبع الذى يفل الذوق فيشل الاحساس بالجمال ؛ ثم برومانسيته المتفجرة المتعايشة مع واقعيته العلمية الدقيقة واللاجئة الى الرمزية الموحية فى بعض الأحيان ، بكل هذا صور لنا الحياة من خلال النفس الانسانية التى تتقلب بين الحرب والسلم دون وعى — أو عن وعى ؛ حرب وسلم فى الحياة من حولها ، وحرب وسلم فى النفس الانسانية فى صراعها مع واقع مرير . انه بسالمبو لم يصور بطلة ، ولم يصور حربا ، وانما هو يصور الصراع بين قيم بشرية تتلاطم على صخرة الواقع .

وهذا الحوار الذكى يكشف لنا عن نقاط مختلفة توقفنا على ميزات أخرى من خصائص هذه الرائعة الخالدة .

سهير القلماوى

الحـــوار

ليمان بريزون(١) چوستين أوبريان(٢) جلبرت هايت(٣)

بريزون : ان رواية « سالمبو » تعطينـــا فكرة عن حـــرب من الصعب علينا أن نتصورها فى وقتنا الحاضر ؛ ذلك لأن الأمم ذات الحضارات العظيمة اليوم لاتقيم جيوشها على المرتزقة من الجنود الذين جلبتهم من كل صوب وحدب ، والذين كانوا من الأذلاء فى مواطنهم الأصلية . وكان من نتيجة ذلك أننا لانجد دولة تضع نفسها فى الموقف الحرج الذى وضعت قرطاجة نفســها فيه فى القرن الثالث الميلادى . وتسمى هذه الحرب بالحرب البونية ، وفيها حاربت روما قرطاجة واستخدمت الجنود المرتزقة لمحاربة الرومان ، ثم ضاق المرتزقة بمعاملة القرطاجيين لهم ، فانقلبوا عليهم . وقد روى فلوبير قصة هذه الحرب فى « سالمبو » .

أوبريان : انها لمصادفة جميلة ذات أهمية أنه قد مضى اليوم

---

(١) Lymen Bryson الرئيس الدائم لندوات (حـــول مائدة المعرفة) ويعمل أستاذا للتربية فى كلية المعلمين التابعة لجامعة كولومبيا .

(٢) Justin O'Brien أستاذ اللغة الفرنسية بجامعة كولومبيا .

(٣) Gilbert Highet أستاذ اللغة اللاتينية بجامعة كولومبيا ، وناقد أدبى لمجلة هاربر .

تسعون عاما على ظهور الكتاب ؛ اذ كان ظهوره فى ٢٤ من نوفمبر سنة ١٨٦٢ .

هايت : وكيف تقبل الناس الكتاب حينذاك ؟

أوبريان : لقد قوبل الكتاب بكل ترحيب من الجمهور ، ولكن يظهر أن النقاد لم يتحمسوا له كثيرا .

بريزون : والعجيب يا سيد أوبريان أن أغلب الناس لا يقرءون هذا الكتاب اليوم لمجرد التسلية ، وانما يقرءونه للدراسات المتخصصة . فكيف تحمس له الجمهور الفرنسي من مائة عام على ما يحويه من التفاصيل العلمية التاريخية الى جـــانب الكلمات الغريبة عليهم ؟

اوبريان : لابد أن الكتاب كان شيئا جديدا عليهم ، فقد أقبل الجمهور على مطالعته بكل حماسة ونفدت طبعته الأولى فى شهر من الزمان ، حتى ان بودلير الذى كان صديقا لفلوبير دهش كثيرا لنفاذ الطبعة .

هايت : ولكنك قلت ان النقاد لم يجـــدوا مادة تروقهم فى الكتاب ياسيد أوبريان . أو بالأحرى انهم اعجبوا به ، ولكنهم أخذوا عليه بعض المآخذ .

اوبريان : لقد أعجبوا ببعض أجزائه دون شك ، ولكنهم جرحوا بعض الأجزاء الأخرى تجريحا عنيفا .

بريزون : على أى الحالات لم يكن هجومهم منصبا على موضوع الأخلاقيات التى فى الكتاب .

هايت : فى الحقيقة أن هذا ما يشغلنى فى الكتاب ـ حيث انه مسرح كبير للعنف والقسوة والوحشية لا يخففها أى سمو روحى على الاطلاق .

بريزون : عنف وقسوة وعظمة لا ترى منها الا بريق الجواهر وأقنعة سابحة وسحبا ضخمة من البخور وما شابه

ذلك من مقومات الحضـــارة البراقة فى الظاهرة الفاسدة جدا فى الباطن .

هايت : صدقت . فهذا ما يحيرنى بصراحة . ان وقائع الكتاب تحدث فى الفترة ما بين حربين بونيتين ناضلت فيهما قرطاجة مرة ضد روما ، ومرة ضد اليونان للسيطرة على البحر المتوسط بأكمله ، وهو المعروف حينئذ بالعالم الغربى . وكان هذا النضال فى أعماقه نضالا أخلاقيا ، فضلا عن كونه نضـــالا سياسيا واستراتيجيا .

بريزون : هذا مايظهر لنا من هذه المسافة الزمنية . لكن مع احترامنا لروما ــ لأنها انتصرت فى الحرب فى النهاية، ولأن حكم التاريخ فى صالحها ــ هل تعتقد من أجل ذلك أن الصراع كان صراعا أخلاقيا ، وأن حضارة روما أعظم شأنا ؟

هايت : هذا ما أعتقده يقينا ، واومن به كل الايمان . ويخيل الى أن فلوبير يحاول اثبات ذلك فى كتابه .

بريزون : كيف تتصور ياسيد هايت مايمكن أن يقوله فى هذا الشأن استاذ فى علوم قرطاجة ان كان هناك مثل هذا الأستاذ فى الدراسات اللاتينية ؟ هل يستطيع أن يدافع عن حضارة قرطاجة ؟

هايت : لا شك أنه سيقول ان قرطاجة كانت دولة استعمارية عظيمة ، وكذلك كانت لها حضارة تجارية ، وانها استقرت فى جـــزر الآزور والماديرا ، وجعلت من اسبانيا دولة متحضرة، اذ فتحت طريق التجارة التى لم يفكر فيها أحد من قبل .

بريزون : ولكن لاتنس ياسيد هايت أنك تستطيع الرد على

هذا الأستاذ بأن تقول له ان أهل قرطاجة كانوا مضطرين أن يستأجروا المرتزقة ليحاربوا لهم ، فى حين أن أهل روما لم يضطروا الى ذلك .

هايت : هذا حق . فلم يؤمن اهل قرطاجنة الا بالمتعة وجمع المال دون ارهاق ، بينما آمن الرومانيون بما هو أكثر من ذلك .

أوبريان : لكن هل يعقل ياسيد هايت أن يكون هناك أستاذ لدراسات قرطاجة ونحن لا نعرف عنها الا القليل، حتى فلوبير نفسه لم تكن لديه المعلومات الكافية عنها وان كان قد قام بكل البحوث الممكنة فى ذلك الوقت ؟

هايت : انك على حق ياسيد أوبريان ، فأستاذ للدراسات عن قرطاجة لابد أن يكون أستاذا لآثار الشرق الأدنى ولابد أن تكون لديه معلومات وافرة عن التماثيل والزخارف والعقائد والشعائر الغامضة ـ وما الى ذلك مما جاء فى سالمبو ـ فان وجد هذا الأستاذ فلن تكون لديه معلومات أكثر من هذه ؛ اذ الحقيقة أن ما يدعى الأساتذة معرفته ما هو الا البسيط عن الأخلاقيات ، ثم عن السياسة والمثل الروحية العليا .

بريزون : أعتقد أن هذا لا يهم كثيرا من ناحية الأدب . أما من الناحية التاريخية فله الأهمية العظمى . ان ما أفهمه هو أن فلوبير قد هاجمه نقاد عصره كما هاجمه نقاد الآثار ، ولكنه انتصر عليهم جميعا .. ولم يستطع أحد فى الواقع أن يسجل خطأ على فلوبير ؛ اذ أن كل ما نعرفه الآن عن قرطاجة قد سبق لفلوبير أن عرفه ، رغم فارق الزمن .

أوبريان : هذا حق ياسيد بريزون ، فانه قرأ كل ما كتب عن الموضوع فى أيامه .

بريزون : وتعلم كل اللغات الممكن تعلمها أيضا .

أوبريان : لاشك أنه درس الموضوع بأمانة تامـــة وعرف كل الحقائق عن قرطاجة . ولقد تفوق فى هذه الدراسات على سانت بيف وجميع مهاجميه من النقاد .

بريزون : لقد بدأ فلوبير يصف قرطاجة مستعينا بالطبع بأسلوب قصصى ، فكيف صور لنا قرطاجة ؟

أوبريان : لقد تناول فى هذا الكتاب الحرب التى بدأت سنة ٢٤١ قبل الميلاد بين قرطاجة ، بجنودها المرتزقة الساخطين ، ونسج فى خلالها قصة غرام بين الأميرة سالمبو ، العذراء التى كرست حياتها للآلهة تانيت رمز الأنوثة الخصبة ، والقائد البربرى ماثو الذى كرس حياته لمولوخ رمز الوحشية المدمرة المتمثلة فى الذكر الذى يلتهم كل شىء . ولا يغيب نظر فلوبير عن هذا التناقض : ان هذا الوغد منجذب الى الفتاة الجميلة ، انجذابة الى قرطاجة .

بريزون : وماثو هو بالطبع قائد المحاربين المرتزقة .

أوبريان : نعم . اننا نجده طوال القصة محاصرا لقرطاجة يفتك بالكثيرين من أهلها .

هايت : هذه فكرة طيبة لم تخطر لى ياسيد أوبريان . الكتاب اذن فى أعلى مستوياته صراع بين مبدأين نعتبرهما بدائيين ؛ وهما : مبدأ الرجل المخرب ، ومبدأ الأنثى البناءة المحافظة . وأعصب أوقات قرطاجة هو فترة حصار المرتزقة لها ، وقيام القرطاجيين بتقديم الأضحيات لمولوخ بحرق أبنائهم هم .

بريزون : هذان المبدآن متأصلان كل التأصل فى جميع الأديان البدائية ، أو بالأحرى فى جميع الصور البدائية لهذه الأديان ، اذن فهذا وصف صادق لمثل هذا النوع من الحضارة .

أوبريان : بعد عدد من المعارك الطاحنة التى قتل فيها مايزيد على ٤٠٫٠٠٠ رجل يقودنا فلوبير فى النهـــاية الى تقديم الأطفال قربانا ليحترقوا داخل أفران مولوخ المتوهجة ــ ومما يزيد وصف نهاية القصة تأثيرا فى النفس ما صوره فلوبير بأن جعل البرابرة يقفون خارج قلاع قرطاجة وقد اخـذتهم الرهبـــة وهم يشاهدون القرطاجيين يذبحون أبناءهم .

بريزون : هذا تعليق جميل على الكتاب يا سيد أوبريان ، فبينما تذكر أنها قصة غرامية بطلتها سالمبو ، اذا بسير الحوادث ينسينا اياها ، ومن المحتمل أن فلوبير نفسـه قد نسيها . وعلى أية حال فهناك قصة غرام تمشى وراء الحقائق العلمية التاريخية والأثرية .

أوبريان : هناك قصة غرام ولا شك . وسالمبوهناتشبه «اما بوفارى» فىالقصة التى أتمها فلوبير قبل تأليفهذا الكتاب . ولعله سئم من وصفه للحياة العادية للناس من أهل نورماندى ، فحول وجهه نحو بريق الشرق محتفظا بهذا النوع من الرومانسية ، فلقد وضع فى حياة سالمبو من العذاب والألم مثلما وضع فى حياة السيدة النورمندية الصغيرة .

هايت : الاتعتقد ياسيد أوبريان أنفىالقصةطابعالوحشية ــ هذا ما أراه أنا حقيقة ــ فحين أقرأ الفصل تلو الفصل فى سالمبو ، فانى أتأثر بالفخـــامة والعظمة والغنى

والشذوذ والقسوة فى كل أجزائها ، ولكنى حين أتتبع خيط القصة الرئيسى أرى فتى يعشق فتاة من بعيد ويبادلها الغرام مرة واحدة ثم يفترقان . وفى النهاية يعدم الفتى فى وحشية على مراى من الفتاة التى تموت من أجل الحب بطريقة رومانسية حديثة ، طريقة قد تكون بدأت فى القرن الثانى عشر ، ولكنها كانت أبعد ما تكون عن تفكير اميرة قرطاجية ، أو بربرى مرتزق .

اوبريان : الواقع أن الفكرة نشأت فى القرن الثانى عشر ، الا أن الرومانسيين كانوا مولعين بها — وفلوبير كان رومانسيا بقدر ما كان واقعيا — فهو يحاول هنا ان يصور النقيضين فى وقت واحد . فهو يصور الحضارة القرطاجية البائدة بكل الواقعية التى استعملها فى وصف حضارته المعاصرة ، وهو فى الوقت نفسه يصور قصة مغرقة فى الرومانسية للحب المعذب الخائب بين شخصين متناقضين انتهى بمأساة ، هى موت الفتاة .

بريزون : هل لى أن أصحح بعض الشىء وصف السيد هايت للقصة ؟ لقد عرضها على نحو جعلها أشبه بأفلام هوليوود . لقد جاء فى الكتاب بوضوح أن سالمبولم تمت بسبب الغرام ، ولكن لأنها اقترفت اثما بفقد عذريتها المثالية .

هايت : ان هذه هى الكلمات الأخيرة للكتاب — وأنت على حق حيث يقول : « وهكذا ماتت سالمبو ؛ لأنها مست حجاب الآلهة تانيت » — ورغم هذا ، فان هذه الفكرة لم تكتب الا فى الفصل الأخير — وكل ما نراه هو موكب

طويل وسخيف ، بل هو من أسخف المناظر فى جميع الأعمال الأدبية ، ألا وهو موكب ماثو يسير بمفرده خلال قرطاجة وهويتعذب بكل ألون العذاب الى أن يسقط صريعا أمامها ، ولا تظهر بوضوح فكرة سالمبو الأميرة وقد اقترفت اثما يحاربه الدين : بل بالعكس نجدها فى مقدمة الاحتفال سعيدة لقرب زواجها من مخلص قرطاجة ، ومن أجل هذا فان الاثم يأتى فى الجملة الأخيرة فقط لتغطية الحقيقة . انه يقدم قصة غرامية بحتة .

اوبريان : ترى ياسيد هايت هل أتى فلوبير بالقصة الغرامية ليستر أشياء أخـــرى ؟ اننى أميل الى الاعتقاد أن فلوبير قد وضع هذه الجملة الأخيرة للدلالة على ما اعتقده الناس فى هذا الموضوع . فحينما رأى اهل قرطاجة ســـالمبو وهى تسقط ميتة قالوا لانفسهم : « آه .. نعم .. لقد سقطت ميتة لأنها هتكت قناع الآلهة » .

بريزون : ونحن نراه بأعيننا الأكثر تفوقا والأكثر مدنية والأكثر حساسية ، ونقول انها ماتت لأنها لم تستطع أن ترى عشيقها يعـــذب حتى الموت . أليست هذه هى الحقيقة ؟

هايت : اننى متأكد أن هذا حق . فالحب الرومانسى جميل وفريد فى نوعه ، ولكنه على أية حال ظاهرة تقدمية، ولا يمكن لانسان أن يطبقها بنجاح فى جميع أنواع الحضارات القديمة وخاصة الحضارة السامية .

بريزون : لقد قلت منذ لحظة ياسيد أوبريان أن فلوبير أخذ على عاتقه ان يطبق واقعية « مدام بوفارى » على

العالم القديم . وهذا مهم جدا . ولكنه لم يفلح .

اوبريان : نعم . أعتقد انه لم يفلح . لأن واقعيته كانت تلتزم الدقة الفائقة . ولقد نجح فى وصفه التفصيلى الدقيق للصيدلية فى قصة « مدام بوفارى » وفى وصفه لأجزاء المنزل الداخلية وفى تصويره لعواطفها واحساسها ، فحاول أن ينهج هذا النهج فى تصوير شخصيات سالمبو وماثو وغيرهما . ولكنه شغل بذكر التفصيلات الأثرية التى تكشفت له من قراءاته، فجار ذلك على وصفه للشخصيات ، وكان سببا فى فشله .

بريزون : هل تعنى بذلك أن حبه للدراسة والبحث قد قتل فيه الموهبة القصصية ؟

اوبريان : نعم . هذا هو شعورى .

هايت : لقد كان فلوبير شديد العناية بالتفاصيل الدقيقة . واننى أتذكر واقعة فى الكتاب حيث نرى الجنود المرتزقة وهم يبحثون عن قائد فى جيش العدو حتى اهتدوا اليه . اننى لو قدر لى أن اصف هذا الحادث أو قدر لأحد آخر لقال ان القائد وجد أخيرا متخفيا، ولكن فلوبير لا يقتنع بمجرد هذا ، بل يقول لنا انه اهتدى اليه عن طريق ثلاثة من الرعاة السامنيين ، فما أهمية أن يكونوا ثلاثة رعاة ، أو ثلاثة وثلاثين ، أو أن كانوا من أهل سامنيوم أو غيرها ؟

بريزون : ان فلوبير يحاول أن يشعرك بالتاريخ ، ولكنه يفشل، لأن هذه ليست هى طريقة اشعار القارىء بالتاريخ. والآن ياسيد هايت ، هل تسمح لى بأن أعود لنقطتك الأولى : أى المسألة الخلقية فى الكتاب . اننا نجد

أن بوليبيوس ، المؤرخ اليونانى الكبير لنفس هذه الفترة ، يروى لنا القصـــة الرومانية فيتمكن من اشعارك بها لأنه يتناول جانبها الأخلاقى أو الروحى. أليس كذلك ؟

هايت : حقا . الا تظن أن فلوبير كان يحمل فى نفسه احتقارا للجنس البشرى فكان فى اعتقاده أنهم اما أغبياء واما قساة ، واما أغبياء وقساة معا . لقد كان أهل قرطاجة أغبياء وقساة ، هذا عدا قائدهم هاملكار ، أما الجنود المرتزقة فكانوا أذكياء وقساة ، وكان هذا كل ما فى الأمر ؛ فالفرق كله هو الفرق بين النمل الأحمر والنمل الأبيض .

اوبريان : اعتقد انك تغالى كثيرا بقولك ان الجنود المرتزقة أذكياء وقساة . لقد كانوا حقا قساة ، ولكنهم لم يكونوا كلهم أذكياء . لقد كان هنـــالك عبد يونانى واحد . ولقد أصاب فولبير فى اختياره ليكون الرجل الذكى الوحيد من بين المرتزقة جميعا .

هايت : هل تتذكر ياسيد أوبريان أن ذلك اليونانى هو الذى دبر الخطـــة العظيمة الاستراتيجية التى كادت تكسب الحرب للمرتزقة ؟ . ان هذه الواقعة من أجمل الوقائع فى الكتاب . وأنا أتذكر أنى شاهدتها مرة فى فيلم صامت ايطالى منذ زمن بعيد . انه اليونانى الذى يفكر فى قطع قناة المياه ، وانه من الصعب جدا أن يصل الانسان الى هذه القناة . ولكن اليونانى هو الذى تمكن من الوصول اليها واســـتطاع أن يقطعها . وهنالك منظر عظيم آخر ، حيث يندفع النهر من القناة المقطوعة ، ونرى على القمة رجلا

يرتدى أسمالا بالية وهو يتطلع اليها . انه لمنظر رائع . انه ذلك اليونانى الذكى .

أوبريان : حقا انه لمنظر رائع . وقد أجهد فلوبير نفسه فى كتابته ، حتى انه بعد أن فرغ منه نقده أحد النقاد بقوله : « ان فلوبير صور هذا المنظر بأكمله لاظهار هذه القناة » . فرد عليه فلوبير بقوله : « ان المشكلة الكبرى التى واجهتنى هى اننى كنت أعلم علم اليقين أن قرطاجة فى ذلك الوقت لم تكن بها قناة مياه ، ولكن كان على أن أخترع لها قناة ، وأن أصفها كما لو كانت حقيقة .

بريزون : لقد عنى ذلك الباحث المدقق بالتفاصيل الحربية ، وقد أجهد نفسه فى ابرازها وان فقد الرومانسية فى الطريق . فهل هذا دليل على صعوبة الجمع بين الدقة التاريخية والدقة الرومانسية .

أوبريان : أعتقد أن هذا حق ياسيد بريزون . فالرومانسية قد ضاعت الى حد ما حين أخذ القراء الفرنسيون فى السنوات التالية يشعرون أن اسم سالمبو ليس لبطلة رومانسية ، بقدر ما هو اسم لحرب مثيرة اتسمت بالوحشية والضراوة .

بريزون : ان السبب فى عودتى الى رومانسية القصة ياسيد أوبريان هو أنك قلت ان سالمبو كانت منذ مائة عام شخصية محبوبة جدا .

أوبريان : لقد كانت حقا كذلك ؛ ففى سنة ١٨٦٣ مثلا ، ولم يمض على نشر القصة بضعة أشهر ، ذهبت مدام رمسكى كورزاكوف الى حفل راقص فى باريس وهى ترتدى رداء أزرق وشى بالنجوم ، وكانت هذه

النجوم تمثل قناع تانيت كما كانت تلف وسطها بثعبان . ولا أدرى هل كان ذلك ثعبانا حقيقيا ، ام وهميا . كذلك توقد خيال المؤلف الموسيقى برلويز بقراءته لسالمبو حتى انه طلب من فلوبير أن يكون مستشاره الفنى فى اختيار الحلل الفينيقية التى ستلبس فى اوبريت الطروادبين . وكان فلوبير يأمل ان يؤلف برلويز أوپرا تدور حول قصة سالمبو .

هايت : فى الحقيقة ياسيد أوبريان قصة سالمبو لم تكن مؤلفا عن الآثار القديمة أبدا ، انها كانت مؤلفامن المؤلفات العديدة التى دارت حول الشرق اذذاك ، كما دارت حول الشرق الأوبرات التى ألفت فى نفس هـــذه الفترة تقريبـــا . انها مثل أوپرا عايدة لڤردى ، وروايات بيير لوتى وغيرها .

اوبريان : تماما ياسيد هايت ؛ فقد كان ڤردى فى باريس فى ربيع سنة ١٨٦٣ ، وتقدم اليه الشاعر تيوفيل ، وكان يأمل ان يؤلف ڤردى له اوپرا ، ولكن لسوء الحظ رفض ڤردى أن يقوم بذلك .

بريزون : ولكن فلوبير كان فنانا جادا مكابدا وأحب أن يقرأ الناس مؤلفه ، كما أحب أن يكون ناجحا ، ومع ذلك كان يحتقر القراء ويكرههم . ولربما كانت له أغراض فى ذلك ، فهل كان من غرضه أن يثبت ، كما لاحظ السيد هايت منذ لحظـة ، أن النورمنديين كانوا اغبياء ، والقرطاجيين كانوا قساة ، وأن كلا الفريقين لا يساوى شيئا ؟ !

اوبريان : أظن أيضا أن فلوبير كان له غرض فنى رفيع جدا ؛ فقد كان يؤلف لنا عملا فنيا من عصارة قلبه ، وكان

يختفى عن عالمه هذا الحديث ، كى يستطيع أن ينتج عملا كاملا، كى ينتج قطعا فنية من الوصف الجميل الحسن الصقل المتعدد الألوان ، كل ذلك بأسلوب فنى مبدع .

هايت : هل تعنى بذلك أن فلوبير كان يعتقد أن العالم الذى يصفه أرقى من العالم الذى يعيش فيه ؟

اوبريان : يجب الا نذهب الى هذا الحد . انه ربما شعر أن العمل الفنى الذى يتمخض عنه وصفه لهذا العالم القديم اجمل من اى شىء فى العالم المعاصر .

هايت : لقد كانت تلك الصورة الفنية تزدهى بألوانها ، كما كانت أكثر عمقا وأكثر حيوية من الواقع .

بريزون : ولكن هذاالعالم القديم كانت له بعض المزايا. وكانت به أشياء أحبها أكثر مما أحب عالمه ــ فرنسا فى القرن التاسع عشر .

اوبريان : نعم . لقد كانت هذه طريقته فى الهروب من الواقع .

هايت : هل تظن ياسيد بريزون أن من الأرجح أن نعتبر أن فلوبير كان يفضل وصف مائة من الناس والأفيال تطؤهم بأقدامها الى أن يموتوا على أن يصف مائة أخرى ذاهبين الى أعمالهم عن طريق قطار النفق فى الثامنة والنصف صباحا وعائدين فى الثامنة مساء. لقد كان فلوبير يشعر أن كليهما يسير الى الموت . ولكن أولهما يموت بطريقة أحفل بالمعانى والألوان .

اوبريان : على اى حال لقد قصد فلوبير أن يتسلى فى وصف اناس تطؤهم أرجل الفيلة فيموتون .

بريزون : السبب فى ذلك أن هذا الوصف كان أكثر صعوبة .

اوبريان : ربما انه لم ير قط اناسا يموتون تحت ارجل الفيلة ،

فذهب وقام بالبحوث الكثيرة حتى يكون واقعيا .
كما أنه اعتمد كثيرا على خياله . أما ذهاب الناس
الى قطار النفق تحت الأرض متوجهين الى أعمالهم —
فهذا بطبيعة الحال لم يكن له وجود أيام فلوبير .

بريزون : لقد فعلوا شيئا مماثلا لهذا . ولكن علينا أن نحذر الانخداع . والواقع أن عظمة قصة «مدام بوفارى» أن فلوبير يصور منظرا عاديا ، أشبه في عاديته بذهاب الناس الى قطار النفق ، فيجعلك تراه في صورة تختلف عن تصورك له حين تكتفي بالقاء نظرة عابرة عليه كل يوم . ولكنه فشل حين أراد تطبيق هذه الطريقة نفسها على التاريخ ، فشل لأنها لا تصلح له .

اوبريان : كلا . ان المثل الذي اختاره السيد هايت عن الجنود المرتزقة وهم يموتون تحت أقدام الفيلة مثل رائع لأن هذه القصة مليئة بمثل هذه المناظر الوحشية التي زخرت بالفظاظة . ففلوبير يصور لنا أربعين ألف رجل يموتون جوعا ، كما يصور لنا الجروح وهي تنزف بالدماء ، والجثث المتعددة الملقاة في ساحة المعركة . ويصور لنا كل الجروح التي أحدثتها الرماح ويعرض علينا الطقوس الجنائزية . ان كل شيء فظيع يصيبك كان يحبه فلوبير ويرحب به .

بريزون : لقد كان كاتبا كبيرا جدا يأخذ على نفسه أن يقوم بهذه الأشياء الصعبة جدا يا سيد أوبريان . فهل زاد هذا من قيمة الكتاب ؟

اوبريان : لست أدرى ياسيد بريزون هل الكتاب عظيم أم لا ؟ فلنحاول أن نقارنه بروائع القصص العالمي ، هل نراه في مستواها ؟

بريزون : وماذا ترى فى « مدام بوفارى » ؟

اوبريان : اننى أعتقد أنها من الروايات الرائعة .

هايت : وماذا ترى فى هذا الكتاب ؟

اوبريان : فلوبير كتب رواية عظيمة واحدة ، ولكنى لا أظن أنها هذا الكتاب .

هايت : لقد كنت أفكر فى هذا الموضوع ـ ان الكتاب يتناول موضوعا يشغلنا دائما . انه المحادثة مع الآثار القديمة . فان الناس حينما يقرأون الانجيل يفكرون فى الماضى القديم وعلاقتنا به . فكلما تطلع الناس الى الفن اليونانى ، أو كلما درسوا القانون الرومانى أو الأدب القديم ، فان ذلك هو ما يقومون به أيضا . انهم يحاولون خلق رابطة مع الماضى . وهذه العلاقة فى رأيى خاطئة . انها علاقة لاتجوى قيما روحية ، كما أنها تورث التشاؤم العميق . وليس هذا فى الواقع هو الدرس الهام الذى ينبغى أن نستخلصه من التاريخ القديم .

بريزون : ربما لا . ولكن الى جانب ما وجهتماه الى فلوبير من اطراء على أنه استطاع ايجاد حل للمشكلات الفنية البالغة الصعوبة ، والى جانب الأسلوب الفخم المنمق ، أحب أن أقول اننا للأسف لا نملك غير هذا الكتاب سبيلا لفهم حضارة قرطاجة . انه لا يقدم لنا الصورة الكاملة . انه لا يعطينا السبب الحقيقى الذى دفع الأبطال العظام من أهل قرطاجة الى محاربة الرومان حتى الموت . ومع ذلك ، ومهما يكن من أمر ، فان ماكتبه فلوبير عن هذه الحضارة هو الأثر الوحيد الذى تبقى لنا عن حضارة قرطاجة .

حرب البلوبونيز

The Peloponnesian War

لثوسيديدس

Thucydides

ثوسيديدس

ثوسيديدس — (٤٧١ ، ٤٦٠ ، ٤٥٥ ق . م . — ٤٠٠ ، ٣٩٥ ق . م .) مــؤرخ يونانى من أعظم المؤرخــين وأعمقهم تحليــلا للأحــداث والأشخاص . لا يعرف تاريخ ميــلاده ولا تاريخ وفاته على وجــه التحديد . والمعلومات عن حياته قليلة نادرة .

درس الخطابة والفلســفة وورث عن أبيه مناجم ذهب فى « ثراس » ولكنه لم يظهر على مسرح السياسة الا سنة ٤٣١ ق . م . دافع عن أثينــــا أمام غزو اسبرطة واعتــــدائها ولكنه عد مسئولا عن سقوط « أمفيپولس » ، فنفى وظل منفيا حوالى تسعة عشر عاما قضاها فى كتابةتاريخه عن « الحرب البولوبونية »، وهو كتابه الأوحد الذى يؤرخ عشرين عاما من أعوام هذه الحرب السبعة والعشرين .

له فى كتابة التــــاريخ فلسفة ، وطريقته علمية دقيقة محايدة الى أبعد مدى ، ويكشف أسلوبه عن قدرة بلاغية ممتازة .

تعريف بالكتاب والمؤلف

هذا كتاب يرجو له صاحبه أن يكون ذخرا خالدا لأنه يمكن ان يكون مفتاح المستقبل . يقول فى مقدمة الكتاب انه كتبه : « الى هؤلاء الذين يؤمنون أن المعرفة الدقيقة بالماضى هى مفتاح المستقبل الذى سيكرر ، فى أغلب الظن ، الماضى أو يقلده . ان هذا الكتاب يرجو أن يكون خالدا لا مجرد متعة بلاغية آنية ، انه يرجو أن يكون ذخرا خالدا على مر العصور » .

بهذه الغاية التى وضعها نصب عينيه راح ثوسيديدس المؤرخ اليونانى يؤرخ لحرب فريدة فى التاريخ هى حرب « البولوبونيز ». حرب أقدمت عليها أثينا بدافع لم تستطع له ردا ، فأسقطت نفسها وانتحرت تاريخيا ، وكان فى يدها أن تقف عند حد . ولكنها استمرت ، لماذا ؟ ان الحرب لم تكن محتومة ، فما الذى حتمها ؟ هنا نقطة الظلام التى تستعصى على كل القوانين . فمهما نستخلص من قوانين تنظم العلاقات وتتنبأ بالسلوك بين الفرد والفرد ، أو الفرد والجماعة ، فهناك نقطة ظلام تفسد قدرة هذه القوانين على أن تكون مطلقة . ونقطة الظلام تلك التى تفرض ما لا يفسره القانون وتحتمه ، هى لباب المأساة فى كل تاريخ .

لقد تكفلت أثينا بحماية بعض المناطق حولها لتفوقها فى القوة البحرية ، وكانت اسبرطة — وهى قوة أرضية ناشئة — تحاول هى الأخرى أن تبسط حمايتها على ما حولها . ودخلت أثينا مع « كورنثا » ، وهى من محميات اسبرطة ، فى نزاع فأغارت اسبرطة على أثينا وميناتها « بيرا » سنة ٤٣١ ق.م. وبذلك اندلعت الحرب

البلوبونية . وقاومت أثينا وانتصرت ، ثم اغارت بدورها منتقمة . واجتاح وباء الطاعون اثينا ، ومات حاكمها « بريكليز » العظيم ، ومع ذلك رفضت طلب اسبرطة للصلح . وتحول التيار نحو اسبرطة بعد أن غزا بطلها الشاب « براسيدا » امفيپولس سنة ٤٢٤ وانتصر . ونقطة التحول تلك هامة فى حياة المؤرخ ثوسيديدس لأنه كان مكلفا بالدفاع عن منطقة قريبة من امفيپولس ، فلما استنجد به قائدها جاءه بالنجدة بعد فوات الأوان ، وان يكن قد أنقذ فى طريقه جزءا آخر من محميات أثينا . وبسبب هذه الهزيمة فى امفيپولس نفى مؤرخنا تسعة عشر عاما ، استغلها كلها فى كتابة كتاب التاريخ الذى خلد اسمه . لقد خانه الخلود فى الحرب ، ولكنه كفر عن خيانته له بأن أجزل له فى عالم التأليف والفكر . وانتهت الحرب بفوز اسبرطة التى تزعمت زمانا قصيرا ، ثم هوى المجد الحربى اليونانى كله .

وكانت هذه الحرب برا وبحرا واشتملت أحداثها على بطولات وخيانات ومواقف وحشية وأخرى انسانية . وراقب المؤرخ المنفى أحداثها حتى انتهت سنة ٤٠٤ ق.م. ومباشرة ، بل فى أثناء الحرب ، أخذ المؤرخ العالم ثوسيديدس يسجل الأحداث ويجمع المعلومات . وكان يفهم التاريخ على نحو جديد . يقول فى الجزء الأول من الكتاب ـ وهو مقدمته التى جعلها خاصة بذكر أسباب الحرب : « ان التاريخ الذى الفه الناس الى اليوم نوعان : نوع يمثله هومير ، وهو الذى يفخم الماضى ويبرز روعته ولو على حساب الحقيقة ليكسب أسلوب الشعر جماله ، ونوع هو مجرد سرد أو نشر للسجلات مثل مسجلى « أيونيـــا » الذين يرصدون الأحداث مجرد رصد ويجمعون المعلومات مجرد جمع ، اما من أفــواه الرواة واما من السجلات الرسمية المكتوبة . وهذا اسلوب فى التاريخ يعجب الجمهور الذى يريد أن يشبع حب الاستطلاع أو الذى يريد أن يعلم » . وأدرج ثوسيديدس

المؤرخ القديم هيرودوت ضمن كتبة السجلات هؤلاء . ولكن التاريخ في نظرة عملية أخرى ــ عملية أكثر فلسفة ، انها درس وتحليل يقول : « أنا لا أريد أن أكتب لأمتع ، وانما أنا أكتب للدارسين . أشخص المرض وأبين عوارضه . فاذا أصيب الناس به لا يكونون فى ظلام وانما يعرفون ما هذا الذى أصابهم . وقد لا يقوون على درء المرض ، وان عرفوه ، ولكنهم اذا أصيبوا به عرفوه ، فكانوا من أمره وأمر أنفسهم على بينة » . انه يريد من التاريخ أن تكون حوادثه منابع فكر سياسى تعلم دروسا للأبناء وللأجيال القادمة . ولذلك هو لا يجمع الحوادث مجرد جمع ، وانما هو يدقق دقة يصفها بقوله : « لم أبح لنفسى أن أسجل حوادث تلك الحرب كما سمعتها من راو يصادفنى ، أو أن أتحكم أنا فيها ، فأثبت ما أريد وأرد ما لا يعجبنى حسبما أهوى . ان تاريخى يعتمد على معلومات تأتينى مما شهدت بعينى ، أو مما محصت حقيقته بعد الرجوع الى جملة مصادر . وكان العمل شاقا عسيرا . فالحادث الواحد لا يتفق اثنان من شهوده على روايتهما له . ان اختـــــلاف قوة الذاكرة من فرد لآخر ، ثم التعصب لفريق دون فريق ، كل هذا يتدخل فيجعل الشاهدين يختلفان فى أقوالهما » .

وهو لا يكتفى بالدقة ، وانما يعتقد أن للتاريخ فلسفة ، وأن له قواعد ، وأن نفس المقدمات لابد مفضية الى نفس النتائج ، وأن المؤرخ لابد أن يستخلص القوانين من خلال ما يدرس من أحداث ، ولابد له من درس نفسية الفرد والجماعة والموقع الجغرافى وطاقاته على النصر أو الهزيمة . وكذلك لابد من دراسة النظم السياسية والموارد الطبيعية والاقتصادية . وبكل هذا يستطيع أن يصل الى منطقة من التفكير تفرض فلسفة للتاريخ فرضا . واذا هو مثلا يرى قانون تعاقب أشكال الحكم من استبداد ينتهى الى ثورة عليه، ثم قيام حكم أقلية ينتهى الى تذمر يقود الى الحكم الديمقراطى ،

ثم ما تلبث الديمقراطية ان تقود الى فوضى تنتهى بعودة الحاكم المستبد مرة أخرى . .

لقد امتاز هذا التاريخ بالفلسفة وبالدقة ؛ ذلك أن المؤرخ قد أتيحت له فرصة أن يشارك فى الحرب بنفسه ، وأن يروى التاريخ لقوم عاصروا الأحداث وشاركوا فيها فاستطاع بذلك أن يتجه فى قوة نحو منطقة الظلام تلك ، يدرس ويعلل ويستقصى لعله يجد لها قانونا .

ولكن أشهر ميزة لهذا التاريخ هى حياد المؤلف حيدة استرعت نظر القدامى والمحدثين على السواء . انه ارستقراطى ورث عن أبيه مناجم ذهب وعاش فى ظل ديمقراطية نبذته ونفته ، ومع ذلك ينصف هذه الديمقراطية ويدرسها درس العالم المحلل لظواهرها وعوارضها . وهو يؤرخ لحرب ظلم فيها وكان يحارب فى جبهة ضد الأخرى . ولم يكن مؤمنا بأن هذه الحرب كان يجب أن تقوم ، أو أن فيها جدوى ، أو أن لها سببا معقولا ، ومع ذلك استطاع أن يرى خطرها ؛ فبالرغم من انها داخلية محدودة قليلة الجيوش نسبيا ، فقد كانت مثار انتباه العالم كله ، واحست المناطق النائية مثل فارس أن نتائجها لابد مؤثرة فيها بشكل أو بآخر . وفى عواطفه الشخصية كان سياسيا منافسا « لبريكليز » ، ومع ذلك انصفه وجعله سيد الخطباء الذين روى خطبهم لأنه فعلا كان كذلك .

لقد أدخل ثوسيديدس الحرب الى المخبر وراح ، بدقة العالم الذى يدرس خواص المواد ، يدرسها وساعدته على ذلك عدة عوامل . أولها أنه شارك فى السياسة وفى الحرب ، وثانيها أنه كتب التاريخ ابان الحرب نفسها ، وثالثها أنه ، لأنه نفى وغضب عليه ، استطاع أن يطمئن اليه الأعداء فأدلوا اليه بوجهة نظرهم دون حرج . كذلك استطاع ، لأن عملا آخر لم يشغله ، أن يذهب الى مناطق القتال بنفسه ، وأن يعيش فيها وحولها ليدرسها دراسة جغرافية مازالت

الى اليوم مرجعا هاما وبخاصة وصفه لسرقسطة ، كذلك تصل بالسجناء فى أثينا ، وتعتبر المعلومات التى كتبها عنهم وعن سجنهم وثيقة هامة فى تاريخ السجن والفترة . واستطاع بذكائه أن يسأل الشهود اسئلة ذكية محصورة فى النقط الرئيسية . اما مرض الطاعون الذى أثر فى سير الحرب أيما تأثير ؛ فقد شارك المرضى فى مرضهم به وراح يصف آلام من حوله .

ولا يمكن أن نترك الكتاب دون وقفة أمام الخطب التى انطق المؤرخ بها قواده ؛ فهى تصل الى ربع الكتاب أو خمسه ، ويرتفع فيها أسلوب المؤرخ الذى درس الفلسفة والخطابة فى شبابه الى ذرى مشرقة تفوق القمم البلاغية التى يصل اليها فى الوصف أو فى السرد . وأول ما نسأل أنفسنا هو : كيف يمكن أن نوفق بين حرص المؤرخ على الصدق الدقيق وبين هذه الخطب التى يرويها على انها بألفاظها مما قاله هؤلاء القادة ؟ أما هو فيقول :

« أما الخطب التى تقال عشية الحرب ، أو ابانها ، فقد كان من الصعب على وعلى من أمدونى بمعلوماتهم وتقاريرهم أن نتذكر كلماتها التى قيلت بعينها ، ولكنى أنطقت القادة بما يلائم المقام وفى نفس الوقت حرصت قدر المستطاع على سلامة النص وحرفيته ما استطعت الى ذلك سبيلا . »

وعلى ذلك فالخطب متشابهة الأسلوب الا فى حالة « بريكليز » ، فاننا نجد الخصائص الخطابية التى اثرت عنه ، والتى ذكرها أرسطو وبلوتارك فى كلامهما عنه ، تتجلى فيما رواه المؤرخ اليونانى القديم من خطبه . وفى الخطبة « الجنائزية » بالذات يصعد قمة لا يصعدها غير « بريكليز » فى كل ما روى من خطب . وقد يحتفظ المؤرخ بخصائص بعض المشهورين من الخطباء والقادة . والخطب التى قيلت قبل نفيه قد يكون حافظا لبعض فقراتها ، ولكن الخطب عامة فى كتابه هامة ، لا بأسلوبها ، وانما بالحقيقة المأسوية التى تتجلى فيها . وقد يصادفنا انتحال هنا أو هناك كأن يذكر بعض

القادة حججا تأتى فيما بعد كرد على ما سيثير العدو من نقاط ، ولكن بالرغم من هذا ، وهو قليل ، نجد الخطب هى روح الكتاب وحيـــاته .

ولقد كانت ظروف أثينا الاجتماعية والفنية والسياسية تحتم ابراز وجهة نظر القادة بهذا الأسلوب المسرحى الحى ؛ ذلك أن اليونان ألفوا هذا فى حياتهم السياسية ولم يكن شاب فى أثينا لا ينتمى الى مجموعة من الناس تناقش سياسة البلد وتسمع فى محافلها وجهات النظر المختلفة خطابة . ان وجهة النظر مقــولة حية ، وعلى لسان صاحبها ، تناسب عصر الخطابة السياسية الذهبى ، بل عصر خطابة المحافل الاجتماعية والقضائية والدينية الذى عاشت فيه أثينا آنذاك . ان حياتهم السياسية كلها شيدت على خطابة القادة ، فأى تاريخ دون خطــابة لم يكن من الممكن أن يستساغ من الأثينيين الذين كتب لهم ثوسيديدس تاريخيه . كذلك كان المسرح يلعب دورا هاما فى الحياة فى هــــذا العصر ، وبخاصة المسرح الملحمى ، وفيه يقف القائد دائما خطيبا ، فقوى عند الأثينيين الحس بأن الخطب هى محرك الســـياسة الأكبر والأقوى ؛ لأنها تمثل وجهة نظر القادة الذين يصنعون التاريخ .

ان تاريخ ثوسيديدس قيم فى سرده ومنطقه وملاحظــــاته وفلسفته ، ولكنه يفقد روحه لو حذفت منه هذه الخطب . انهــا الضــوء ينير التفكير الســياسى الذى أراد أصــلا أن يؤرخه . اننا من دونها نفقد الحلقة الأهم فى فهم الدوافع والاحساسات وردود الفعل التى اختلجت بها نفوس القادة الذين كان بيــدهم زمام الموقف فى الحرب ، وفى الاعداد لها ، وفى قبول شروط الصلح أو رفضها : ان الحرب حتى عند أكثر الشعوب ديمقراطية تفرض نوعا من تسليم الأمر الى قائد حكيم . ولولا خطب « بريكليز » ما آمن الاثينيون بقوتهم وما اندفعوا ينتقمون من الاسبرطيين

بحماسة . ولقد نجحت هذه الطريقة الدرامية الحية التي اتبعها ثوسيديدس فى تاريخه الى حـــد أن قلده مؤرخون كثيرون من بعده . بل الى حد جعل « ديموسثينس » خطيب أثينا الأشهر ينسخ هذا الكتاب ثمانى مرات ويحفظ أجزاء كبيرة منه عن ظهر قلب . ومع ذلك لم تسلم هذه الطريقة من نقد بعض النقاد وان يكن نقدهم ضئيلا .

والكتاب ، بعد ، مختلف فى تقسيمه ، فمنهـــم من يرى أن المؤلف نفسه قسمه الى ثمانية أقسام . ومنهم من يرى أنه ثلاثة عشر قسما . والقسم الأول منه مقدمة فى أسباب الحرب ، وأما الثانى والثالث والرابع فهى تقص قصة السنوات التسع الأولى من الحرب ، وقد دامت كما نعرف سبعة وعشرين عاما . وفى القسم الثانى نجد وصف الطاعون المشهور الذى أصاب أهل أثينا وثوسيديدس من بينهم ، ولقد اهتم بوصف المحنـــة وبوصف الأشكال الشاذة التى يتخذها سلوك الناس تحت ضغط مصيبة الوباء . أما فى القسم الخامس فهو يصف السنة العاشرة للحرب وما تلاها من سلم فى هدنة قلقة . وأما القسم السادس والسابع والثامن فانه يقص فيها وقائع حملة صقلية حتى يصل الى الحرب الايونية ثم يقف الكتاب فجأة سنة ٤١١ . ذلك أن المؤلف اغتيل فيما يظهر فى احدى جولاته فى أثينا أو عند عودته الى تراس فى أثناء بحثه عن معلومات يضمها الى كتابه . وخليق بنا أن نذكر أنه لا يذكر الأعوام وانما تدلنا عليها الأعياد والاحتفالات التى يصفها ، كما أنه يقسم العام الى صيف تقع فيه الأحداث من مارس الى آخر أكتوبر وشتاء تركد فيه الأحداث من نوفمبر الى آخر فبراير.

هذا هو تاريخ ثوسيديدس الذى خلده بعد أن رفض القدر أن يخلده سياسيا أو قائدا حربيا . انه أول محاولة لفلسفة التاريخ وتقنينه ليرسم به معالم المستقبل فى الحرب والسلام أمام الانسانية، وان اعترف صاحبه أن هناك شيئا لا يزال اسمه القدر يلعب دورا تعجز سلامة القوانين وعمق الفلسفة عن أن تفسره .

سهير القلماوى

الحـــوار

موسيز هاداس (١)   أندرية ميكالوبولوس (٢)   ليمان ريزون

بريزون : أعتقد أن تاريخ ثوسيديدس لحرب البولوبونيز هو أقوى الكتب التاريخية (لا الروايات ولا الشعر) تصويرا لمأساة هذه الحرب ، فهو يصور كيف أن هذه الحضارة العظيمـــة التى قد تكون أعظـــم الحضارات طرا قد حطمت نفسها بنفسها بسبب الحروب الأهلية .

ميكالوبولوس: حقا يا سيد بريزون . فهذا هو الواقع . انهـــا قصة حرب البواوبونيز . وقد استمرت ســـبعا وعشرين عاما بين أثينا واسبرطة . وقد انتهت بسقوط أثينا سنة ٤٠٤ قبل الميلاد .

بريزون : كان يعنى هذا تدميرا لما نسميه نحن بالحضـــارة اليونانية العظيمة .

ميكالوبولوس: نعم . وبالطبع قد استعادت أثينا قوتها بعد ذلك ، واستمرت لوقت طويل وما زالت الى حد ما تلعب دورا حضاريا الى الآن .

بريزون : وبطريقة ما نجد أن معظم الأسماء التى لمعت فى أثينا وهى فى أوج عظمتها الفكرية ، وأقصـــد بذلك الفلاسفة المؤلفين ، قد ظهروا فى القرن الرابع بعد الميلاد . وأثينا التى كانت قاعدة لهذه القمة الفكرية هى أثينا فى زمن « بريكليز » أليس كذلك ؟

---

(١) Moses Hadas أستاذ اللغة اليونانية واللاتينية بجامعة كولومبيا .

(٢) Andre Michalopoulas ناقد ومحاضر .

هاداس : لا أشك فى ذلك يا سيد بريزون ، ولكن اندحار الحضارة اليونانية ـ على حد قولك ـ وكما وصفها ثوسيديدس كان أمرا محزنا ، وانى أعتقد أن ثوسيديدس كان يدرك ما فيه من مأساة ، كما أنه لا يمكن لأى يونانى ناضج أن ينظر الى مثل ذلك الوضع بغير النظرة الحزينة .

بريزون : بل أن ثوسيديدس نفسه كان جزءا من هذه المأساة، وان كان من الصعب أن تستنتج ذلك من الكتاب الا حينما يقول بالنص : « لقد كنت جزءا منه » . فلقد استبعد نفسه وذاته من هذا الكتاب أبعادا تاما .

هاداس : لقد استبعد الذاتية من هذا الكتاب ليحل محلها صورة العالم فى المعمل مرتديا ثياب الباحث البيضاء يتطلع الى الأثينيين مرة ، والى الاسبرطيين أخرى دون أن ينحاز لفريق دون آخر ، بل كان موضوعيا يبحث عن الحقيقة وحدها ، وهذا من أجمل ما يوصف به هذا الكتاب .

بريزون : بالرغم من أن النزاع بين الأثينيين والاسبرطيين قد وصل فى النهاية الى اراقة دماء كثيرة .

هاداس : نعم لقد اريقت دماء كثيرة وثوسيديدس يعترف فى الجزء الخامس من الكتاب أنه هو نفسه قد اشترك فعلا فى هذه الحرب دون توفيق ، فقد قدر له أن ينسحب من ميدان القتال .

ميكالوبولوس: انه مؤرخ غير متحيز ، مؤرخ موضوعى جدا .

بريزون : هذا ما نسميه بالتاريخ العلمى .

ميكالوبولوس: نسلم بهذا ، فهو حقيقة يحاول جاهدا أن يكون

منصفا ، ولكنه أحيانا يتخلى عن حيـاده . ففى قضية « بريكليز » مثلا نجده يسبغ عليه الشرف الذى يستحقه فيقرر على لسانه حديثا رائعا ، ويقول لنا ثوسيديدس فى هذا الصدد أن طريقته فى هذه الأحاديث التى يزخر بها كتابه أن يعيـد على أسماعنا ويصور لنا بقدر الامكان الكلمات التى قيلت فعلا ، هذا بالرغم من أنه لم يحضر معظم هذه الخطب ، وثوسيديدس نفسه لا يدعى نصـها الحرفى ، ولكنه على أى حال يعطينا خلاصة هـذه الخطب وروح معناها دون أى تشويش ، فلقد عرض قضية « بريكليز » ، الذى كان فى وقت ما منافسا سياسيا له فى زعامة أثينا ، ثم انتخب « بريكليز » فعلا وسقط ثوسيديدس ، ولكننا نجده رغم ذلك منصفا له الى هذا الحـد . وقائلا على لسانه كلمات عظيمة كهذه ، مما جعله جديرا بكل تقـدير .

هاداس : غير أنه توجد مواقف كثيرة تظهر فيها شخصيته ، وهذه المواقف تمتاز بالروعة . فهنالك مثلا الموقف الذى يظهر فيه تحيزه القوى فى قضية « كليون » ، وذلك عندما ذهب « كليون » الى اسفاكتيريا بعـد موت « بريكليز » . وكليون هـذا كان يخلف « بريكليز » ، وثوسيديدس يمقت « كليون » ولا يحاول اطلاقا أن يخفى كراهيته له ، وهو فى هذا يقول : « ولو أن كليون استولى على جـزيرة اسفاكتيريا فى ٢٠ يوما ، فان هذا يعد توفيقا كبيرا ولكن اذا قتل دون ذلك فان هـذا هو التوفيق الأكبر » . وهذا ما كان يتوقعه معظم الناس . وقد

انتهج « كليون » سياسة « بريكليز » الى حد كبير ولم يكن يختلف عنه فى شىء سوى أن « بريكليز » كان معتدلا رحيما .

بريزون : لقد كان « كليون » أكثر عنفا يا سيد هاداس . وفى نظر ثوسيديدس يمثل « كليون » نوعا من العنف تتمثل فيه الروح اليونانية فى أثينا ، واعتقد ثوسيديدس أن هذا العنف كان سيودى به .

هاداس : نعم . فقد كانت هذه هى الديمقراطية المتطرفة .

ميكالوبولوس: لقد كان « كليون » مهيجا للجماهير رغم أن السياسة التى انتهجها كانت استمرارا لسياسة «بريكليز» . وهى وان كانت صحيحة غير أنها بلغت فى عهد « كليون » حد التطرف لأن وسائله كانت مثيرة للجماهير الى اقصى حد .

بريزون : دعنا هنا نسترجع الحوادث للحظات . اثينا تخطو خطواتها الأولى كى تصبح دولة عظيمة ، ولكنها لم تطمئن الى قوتها بعد ، وهذه القوة قامت على تفوقها البحرى .

هاداس : لا يمكننا أن نسلم بذلك ، فبعد الحرب الفارسية وخلال الأعوام الخمسين التى تلتها استطاعت أثينا أن تقيم امبراطوريتها بوسائل ملتوية ، فقد كانت تحمى جزر بحر أيجة من الخطر الفارسى مقابل ما تدفعه لها . وهذه الجزر وجدت أنه من المستطاع دفع مبالغ معينة الى أثينا بدل الانفاق على بناء قوة بحرية لنفسها وصيانتها ، فأثينا كانت تملك وحدها القوة البحرية العظمى الى جانب المال اللازم لصيانتها وتنميتها . وحينما رفعت هذه الجزر صوتها بالاحتجاج قائلة : « هل ندفع

لكم هذه المبالغ لتبنوا الاكروبولس ؟ » قال لهم الأثينيون : « ماذا دهاكم ؟! ألسنا الذين نحميكم مقابل ما تدفعون ؟! » ، وهكذا توسعت قوة أثينا حتى ان الشعوب الأخرى ، وخاصة الاسبرطيين ، كانوا يرجفون منها خوفا ، كما يقول ثوسيديدس .

بريزون : هذا طبعا لأن قوة الأسبرطيين كانت قوة برية . وهذا نزاع تقليدى بين القوى البحرية التجارية الديمقراطية من جهة ، والقوى البرية الزراعية الاقطاعية من جهة أخرى . والذى أعنيه ياسيد هاداس ، ان ثوسيديدس ، كما أعتقد ، يوضح لنا كل الوضوح كيف أن الأثينيين لم يتحققوا من كفاية قوتهم لمواجهة اسبرطة الى أن أظهر لهم « بريكليز » انهم أقوياء فعلا .

هاداس : لقد أشاد بما يملكون من قوة ومال وبحرية ، معرفا اياهم أن ليس المهم التنكيل بأتيكا ، انما المهم هو الانتصار . والانتصار يصبح مؤكدا بعملية حسابية بسيطة ، اللهم الا اذا ارتكبوا حماقات مزرية .

بريزون : اذن فأمامنا حدث طالما تكرر فى التاريخ ، هذا الحدث هو الصراع المستميت بين القوى التى تعتمد على الزراعة والقوى التى تعتمد على السفن الحربية البحرية ، وفى هذه الحرب بالذات نجد أن الفريقين المتحاربين قد انحصرا فى شبه جزيرة صغيرة ، وكلاهما من اليونانيين ولا يهدد الفريقين عدو خارجى .

هاداس : هذا حقا مما يجعل كتاب ثوسيديدس ذا فائدة

عظيمة ، فعدد من يتحدث عنهم قليل ، كما أن مسرح الأحداث صغير محدود . اذن فلدينا نموذج لمعمل صغير ، يستطيع كل منا أن يرى فيه كل شيء داخل أنابيب الاختبار (اذا صح التعبير) ، وثوسيديدس كان فعلا يسير على هذا النهج ، وهذا مما يزيد فى فائدة ما يكتبه ، فالأحداث والأشخاص التى يتناولها يمكن لنا أن نراها بمجرد القاء نظرة على أنابيب الاختبار .

ميكالويولوس: وبعبارة أخرى . فانك تحصل على نموذج مصغر لنماذج أكبر لا تنقطع عن تكرار نفسها ، وهى لا تكرر نفسها كلية بالطبع ، فانها لا تستطيع ان تكرر نفسها تكرارا كاملا ، لأن الظروف لا تكون واحدة تماما فى كل مرة . ولكن ثوسيديدس يامستر هاداس كان يأمل أن يكون كتابه ذا فائدة باعتباره نموذجا خالدا للمستقبل .

بريزون : ولكن من المعروف عن ثوسيديدس انه أعجب بهيرودوت ، ولكن حينما بدأ يؤرخ نهج طريقة تختلف تماما عن طريقة هيرودوت .

هاداس : أنا لست متأكدا هل ثوسيديدس أعجب حقا بهيرودوت أم لا ؟ انما المحتمل جدا هو أن ثوسيديدس تعلم حرفته كمؤلف على يد الأطباء من المدرسة البقراطية ، والدليل واضح على ذلك ، انه عندما يصف أحداث الطاعون كان يعطينا أعمق وأوضح التفاصيل التى يمكن للطاعون أن ينمو فيها ، بالاضافة الى تشخيصه لهذا المرض وتعريفه

له . والأهم من كل هذا وصفه للناس تحت وطأة الطاعون ، وهم يمارسون أعمالا لا يمكن لهم القيام بها فى أى وقت آخر . فلو أخذنا قصة الطاعون فى الكتاب الثانى ثم تدرجنا الى قصة الثورة والنزاع الطبقى فى الكتاب الثالث ، لوضح لنا للمرة الثانية كيف تقوم قوانين السلوك الانسانى فى ظروف معينة . فهذه الأحداث تتكرر دائما : الأغنياء يحاربون الفقراء ، فضلا عن أن بعض الكلمات تفقد معانيها الأصلية . فالعدالة والبسالة والديمقراطية كل هذه تعنى أشياء أخرى ، وهذه هى الطريقة التى يعالج بها ثوسيديدس ما يتناوله من موضوعات . ان طريقته هى الطريقة العلمية التى تزودك بنماذج حية من سلوك الانسان نفسه ، سلوكه كحيوان سياسى .

ميكالوبولوس: معنى هذا أن تاريخ ثوسيديدس فلسفة للتاريخ أكثر منه تاريخ يحكى القصص المسلية كما هى الحال فى تاريخ هيرودوت . أقصد أن الانسان يجد متعة كبيرة وهو يقرأ التفاصيل التاريخية التى يقصها علينا هيرودوت . انها قصص ممتعة ومشرقة لا تخلو من الواقعية . هذه القصص تظهر لنا قدرة هيرودوت الكبيرة على الملاحظة ، ولكننا حينما نقرأ لثوسيديدس نجد أننا أمام مؤلف علمى يتنبأ بأحداث المستقبل على ضوء الأحداث الماضية .

هاداس : ولكن ثوسيديدس لم يقصد أن يجعل كتابه سهلا ، فبينما يجد من يقرأ لهيرودوت متعة وسهولة فى القراءة ، فان نفس القارىء يتراجع بسرعة حينما يحاول قراءة ثوسيديدس ؛ وذلك لأن ثوسيديدس

كتب بأسلوب يونانى صعب ، لأنه كان لا يكتب الا لمن يتمعن فى القراءة .

بريزون : انه يعمد الى المبالغة فى الايجاز والتعقيد .

هاداس : ان ثوسيديدس نفسه قد قال فى هذا الصدد : « فانك قد تقرأ الجملة مرة ، ومرة ، ومرة اخرى ، ولا تستطيع أن تصل الى دلالتها الا بعد جهد عنيف » .

ميكالويولوس : ولقد كان هذا جزءاً من طريقته . ألا تظن أن ثوسيديدس كانت له المقدرة النادرة فى الكتابة المركزة حتى أن جملة واحدة مما يكتبه كانت تحتوى على الكثير والكثير من المعانى . نعود الى موضوعنا السابق .. هل تعتقد أن ثوسيديدس كان سيىء النية فى حديثه عن هيرودوت ؟

هاداس : من المؤكد أن ثوسيديدس تحقق من عظمة العمل الذى كان يحاول أن يقوم به ، وهو فى هذا يكتب هذه الملاحظة التهكمية معرضا بهيرودوت عندما يقول : « اننى لا أكتب موضوعا انشائيا ليتسلى به عدد كبير من الناس ، ولكنى أكتب مادة تحتاج الى دراسة شاقة لمن يحاول أن يتفهمها ، فانك اذا فهمتها فلن تكون فى ظلام كما هى الحال فى الطب . فاذا أصابك المرض مرة فانك فى المرة الثانية تعرف الطريقة التى هاجمك بها هذا المرض فتكون اكثر صمودا فى مواجهته ، حتى وان أصبح من العسير عليك مفاداته ، ولكنك لا تكون فى الظلام » . ومع ذلك فقد تصاب بكارثة . وفى ظنى أن الطبيعة البشرية فى ناحيتها الأخلاقية ثابتة ثبوتها فى الناحية الفسيولوجية .

بريزون : والآن يخيل الى ياسيد هاداس أنه لابد لأحدنا من أن

يضع اصبعه على الجرح ، فما الذى قاله ثوسيديدس عن أسباب انهيار أثينا ، ان أثينا هى التى كان يهتم بأمرها ، أليس كذلك ؟ فهو نفسه كان أثينيا ــ هل كان الطاعون هو السبب ؛ ذلك الطاعون الذى كان نكبة طبيعية لم يكن يتوقعها أحد ؟ أم كان السبب تضاعف طموحها أو ربما كان استبدادها فى مستعمراتها ، أم انه كان مجرد سوء الحظ كالذى يصيب الانسان أحيانا ؟ هل كان السبب هو الوحشية ؟ لماذا يقول ثوسيديدس ان أثينا قد تحطمت ؟

هاداس : انه يشير أولا الى أن الأمور ربما كانت تأخذ شكلا مختلفا لو أن « بريكليز » لم يمت .

بريزون : اذن كانت الغلطة فى السياسة ؟

هاداس : يقول ان أثينا قد حطمت نفسها بنفسها ، ولم يحطمها العدو . أو بمعنى آخر أنها تحطمت بسبب الفساد والطمع الذى عم البلاد ، كما أن استمرار الحرب نفسه قد استنفد أثينا ، واستنفد خيراتها ، وليس هناك سبب حقيقى لاستمرار تلك الحرب طيلة هذه السنين .

بريزون : أن الاسبرطيين كانوا فى وقت ما على استعداد للانسحاب من المعركة .

ميكالوبولوس: أظن أنهم عقدوا معاهدة لوقف الحرب سنة ٤٢١ قبل الميلاد ، على أن يدوم السلام بينهما مدة خمسين عاما ، غير أن الاسبرطيين انتهكوا كل هذه المعاهدة فنيا مما أغضب الاثينيين ، ومما دعا الى استئناف الحرب ، ويظهر أن ثوسيديدس كان يلمح الى أن

هناك دورة طمع فى السياسة لعلها خالدة : تنتقل الدولة فيها من مرحلة الاستبداد فيزداد المستبد فى استبداده مما يدعو الناس الى الثورة فى وجهه، ثم بعد هذا تتعرض الدولة للحكم الأوليجاركى ، أى حكم الأقلية ، ثم تطغى الاوليجاركية ، فيستبدل بها حكم الرجل العادى ، الحكم الديمقراطى ، ثم تجمح الديمقراطية وتجرى على رسلها بعد استيلائها على الحكم بوقت طويل فتتم حلقات الدائرة الوبيلة ويتهيأ الجو لاستبداد جديد . وقد وصل بوليبيوس الذى ألف كتابه بعد ثوسيديدس بمائتى عام الى نفس النتيجة . وبوليبيوس يشير الى ثوسيديدس وينقل عنه تلك النظرية ليردها الى ثوسيديدس ، وهذه هى الطريقة التى يحاول بها بوليبيوس تفسير تاريخ ثوسيديدس ، وأعتقد أنه على صواب .

بريزون : الناس جشعون ، وتتخذ مطامعهم شكل حلقات من الأنظمة حتى تقع المأساة التى لا مفر منها .

هاداس : اننى أكرر أن ثوسيديدس كان ينظر الى التاريخ كما ينظر العالم أو الطبيب الى المريض ، ففىالأحداث التاريخية هوة سحيقة جدا لا نعلم عنها شيئا ، وكل ما نستطيع عمله هو أن نتنبأ ببعضها ، ولكن لا تزال هناك منطقة كبيرة غير معلومة لدينا . وثوسيديدس فى هذه الحالة يقلل من المنطقة المجهولة بقدر الامكان ، وبعد أن ينقصها وبعد أن يتحدث عن سلوك الناس وهم جشعون أو حينما يدب الضعف فيهم ستبقى لدينا منطقة مجهولة ، وهذا هو لب المأساة اليونانية ، فمهما نحاول استقصاء المعلومات عن أى موقعة حربية سيظل لدينا جانب

منها مجهول ــ وكل ما يمكن أن نفعله هو الحدس كما هى الحال فى شخصـــية أوديب الملك ، فان الأحداث هى التى كانت السبب فى نهايته المحتومة، وكذلك الحال هنا ، اللهم الا اذا إستطعنا تغيير الحيوان نفسه ، فالانسان حيوان قابل للتحسن ، ولكن لا يمكن أن نجرده كل التجريد من انسانيته أو نحوله الى ملاك من الملائكة .

ميكالوبولوس: لقد أشرت الى تمثيلية الملك أوديب ياسيد هاداس ، وانى أوافقك كل الموافقة فيما قلت .

بريزون : هذه التمثيلية تمثل اليوم تمثيلا رائعا فى نيويورك .

ميكالوبولوس: نعم انه تمثيل رائع ، ففى قضية الملك أوديب وفى قضية ثوسيديدس تتدخل أحداث لم يكن يستطاع التكهن بها . أما كتاب التراجيديا فنراهم ينسبون التدخل الى قوى خارقة ليعمقـوا أثر المأساة . أما المؤرخون فينسبون التدخل الى أحداث غير متوقعة ، كالطاعون وما اليه من الأمور التى لم يكن يستطاع التنبؤ بها .

بريزون : انما هو الحظ العاثر .

ميكالوبولوس: فى حياة الأمم وفى حياة الأفراد يوجد الحظ السيىء. فى نفس الوقت نجد سوء الحظ هذا فى مسرحية أوديب الملك وفى ثوسيديدس يتمثل أعنف ما يتمثل فى نقطة ضعف العامل الانسانى ، وفى الانسان نفسه. فى حالة أوديب نجد أن ضـــعفه يتمثل فى شدة أصراره وصرامته ، وفى حالة لاوس وجوكاستا نجد انهما اقترفا جريمة قتـل غير مباشر ليفرا من اللعنة .

هاداس : لا يمكن أن نأمل فى استئصال تلك الأخطاء . وقد يكون من الممكن تخفيفها ، ولكن من الصعب القضاء عليها نهائيا .

ميكالوبولوس: أنت على حق . فثوسيديدس يبدى ملاحظة تتفق مع ما تقول ياسيد هاداس . فهو يقول انه فى وقت السلام والرخاء تسيطر على الدول والأفراد دوافع نبيلة عالية ، وذلك لأنهم لا يخضعون لوطأة الحاجات الضرورية ، ولكن الحرب هى التى تحرمهم من الراحة والرفاهية التى هم فى حاجة اليها . فالحرب سيد ضاغط عنيف يميل الى دفع الأفراد الى اشباع نزواتهم الشخصية .

بريزون : يقول ثوسيديدس فى مكان آخر ان الأفراد حينما يكونون فى رغد من العيش فانهم يزدادون فى طلباتهم الملحة ، وحينما يكونون فى فقر فانهم يقنعون بالقليل، وفى كلتا الحالتين ترى نفوسهم تصبو الى الطمع وتنحل أخلاقهم ، وبالتالى يقعون فى الشر .

هاداس : اعتقد أن أهم شىء فى موضوع المأساة هو أن كلا من الشعراء الذين برعوا فى كتابة التراجيديا وثوسيديدس ، وربما كتاب القصة الجادين أيضا هؤلاء جميعا يحاولون أن يروا الحياة كنموذج للعلاقات الانسانية ، علاقاتهم بعضهم بالبعض ، وعلاقاتهم بالقدر . والمهم هنا هو النموذج ؛ أعنى ايجاد روابط سببية بين حادث وآخر ، وبين حادث وشخصية من الشخصيات ، لا عرض الشىء باعتباره مجرد مصادفة من المصادفات أو نزوة من النزوات. فهناك قدر معين من المصادفة لكن يجب ألا يبقى

منها الا أقل القليل . وأما الكثرة الغالبة ، وهى الجزء الأكبر ، فمن الممكن استبعاده ، وبذا قد يمكن منع قيام الحرب أو على الأقل منع مضاعفاتها الرهيبة كما حدث فى الحرب البولوبونية .

ميكالوبولوس: أعتقد انه كان من الممكن منعها كل المنع ، وكان هذا رأى أرستوفانيس ، فهو يقول ان الحرب كلها بدأت بسبب ثلاث نساء غبيات ، وبالطبع أرستوفانيس، لكونه كوميديا أو كاتبا للكوميديا ، فقد قال ذلك البعض .

هاداس : على أية حال انه يقلد هيرودوت تقليدا هزليا حين يقـــول الحروب تبدأ لأن الناس يختطفون بعضهم بعضا .

ميكالوبولوس: نعم لأن بعض الشبان الأثينيين السكارى سرقوا فتاة من ميجارا .

هاداس : ولكن الشبان سيختطفون دائما الفتيات ، وهذا هو بيت القصيد ، فكيف يمكن لك أن تمنع الفتيان السكارى من سرقة الفتيات الجميلات .

ميكالوبولوس: على اى حال أرستوفانيس كان يعنى ما يقول ، وهو أن الفتيات الجميلات قد اختطفهن الشبان السكارى، فليس معنى هذا الاختطاف هو أن يقوم شبان الفريق الآخر ويختطفون فتيات العدو حتى يكمل التعادل . ولكن هل معنى هذا أن عدد شباب أثينا كان كبيراً حقا ؟ ان الحرب مع أسبرطة لم يكن لها مسوغ اطلاقا ، وان ثوسيديدس كان يدرك مقدار المأساة فى هذه الحال .

بريزون : غير أنه يظهر لى أنه يمكن أن نفسرها بطريقتين ؛ فهناك فى كتاب ثوسيديدس نقطتان هامتان جدا : حملة صقلية حيث نرى وصفا مروعا للمأساة التى حدثت حينما ذهبت أثينا بمجرد أطماعها ونواياها التعسفية وهزمت شر هزيمة ، كانت هذه الحملة غير عملية اطلاقا ، وكان ذلك طموحا يدل على الغباء، هذا ما يظهره لنا ثوسيديدس على الأقل ، فقد كان طموح أثينا طموحا امبرياليا استعماريا ، ورغم ذلك فهذه الحملة قد فكر فيها وأعدت بطريقة بارعة كما وافق عليها الشعب الأثينى بأكمله واندفع اليها بتحمس كبير .

هاداس : ان الكابيادس يضع لنا قاعدة لهذه الحملة . يقول ان ثمة مبدأ يصعب الخروج عليه . انه متى نظمت دولتك على الأساس الامبريالى فعليك أن تستمر فى هذا الطريق وذلك ببساطة لعجزك عن التوقف .

بريزون : وهذا الاستمرار يجعل الانسان يسير حتى توقفه العوامل الخارجية .

هاداس : انه يسير حتى يستولى على ايطاليا ثم يستولى على قرطاجة ثم يستولى على أسبرطة ثم فارس ثم يدين له كل العالم ويصبح حاكما فردا له كله .

بريزون : لقد حاولت روما فعل ذلك .

هاداس : وكان الاسكندر هو أول من حاول ذلك .

بريزون : ولكن هذه الحملات جميعها انتهت الى القدرالمحتوم، فهناك نقطة بعينها لا تستطيع تخطيها .

هاداس : تكون الدائرة قد دارت عليك لتبدأ دورتها فى طريق الأخوة العالمية .

بريزون : هذا يأتى فيما بعد ، ولكن ثوسيديدس لم يذكر ذلك . والآن أيها السادة هناك النقطة الأخـــرى الرفيعة التى تجدونها فى الحوار الذى يقول فيه ان الاخفاق فى النهاية لا يعود لسوء التخطيط أو الى الأخطاء أو الى الخرافة وهكذا ، بل انه يفترض أن الاخفاق يرجع الى تحدى الآلهة .

هاداس : لا أعتقد أن السبب هو تحدى الآلهة ، ولكنى أظن أن صلب الموضوع أن الطبيعة البشرية بها ضعف . ونحن نعرف عن بنى الانسان ، ولعل هذا يصدق على الآلهة ، أنهم بحكم قوانين طبيعتهم يسيطرون حيث يستطيعون ويستســلمون حيث يجبرون . فاذا أستطاع انسان أن يسيطر فلن يستطيع شىء أن يحول بينه وبين ذلك .

بريزون : ولكن الأثينيين حينما تركوا « ملــوس » بعد أن حطموها . . . .

هاداس : لقد استنكر ذلك كل ذوى الطبائع الرقيقة .

ميكالوبولوس: نعم . وقد غضب يوريپيدس نفسه ومن أجل هذا كتب تمثيلية « نساء طروادة » التى أعرب فيها عن أساه لهذا الحادث فى شعر بلغ منتهى القوة .

بريزون : أظن أنه لا بد لنا أن نعتبر أن ثوسيديدس قد تحدث عن أشياء كثيرة دون شك . ان كتابه هو النوع القديم من الكتب وليس لدينا منه الا القليل أمثال مكيافيلى ودانتى ــ انه كتاب السياسى المبعد الذى يكتب كتابة عميقة الدلالة عن الأحداث السياسية على حقيقتها ويكشف لنا عما يعتقده فى هذا الموضوع ، وعما كان خليقا أن يحدث لو فرض أن القوم (نساء ورجالا) كانوا أحسن مما هم عليه .

دون كيخوته

Don Quixote

لسرفنتيس

Cervantes

سرفنتيس

ميجيل سرفنتيس سافدرا : (١٥٤٧ م – ١٦١٦ م)

روائى اسبانى يعد أكبر الروائيين الاسبان واشهرهم دوليا . أوصلته الى هذه المكانة روايته المعروفة « دون كيخوته دو لامنشا » . ولد فى «كالادوهينارس» فى اسبانيا من أب طبيب فقير كان يتجول لكسب عيشه . ثم عمل لأمير ايطالى ورحل معه الى ايطاليا . خاض حرب « ليپانتو » سنة ١٥٧١ وفقد فيها ذراعه اليسرى . خطف فى عملية قرصنة واخذ أسيرا فى الجزائر خمس سنوات ، عاد بعدها فقيرا الى اسبانيا .

وفى نحو الستين من عمره أصدر الجزء الأول من روايته « دون كيخوتة دولامنشا » سنة ١٦٠٦ ، ولم تكن له أية شهرة أو مكانة فى الأدب قبل ذلك . غره نجاح الجزء الأول فنشر رواية « نوڤاليس » سنة ١٦١٢ فلم تلق أى رواج . وبعد تسع سنوات من صدور الجزء الأول نشر الجزء الثانى من « دون كيخوتة دولامنشا » الذى يعد عند كثيرين أفضل من الجزء الأول . وبعد عام مات ودفن فى مدريد .

له الى جانب ذلك رواية ريفيــة « جالاثيــا » سنة ١٥٨٥ لاقت بعض النجاح ، وعشرون مسرحية

فاشلة لم يصلنا منهـــا الا مسرحيتان : « الحياة في الجزائر » ، و « من ذكريات أسرة » .

أول ما نشر مجموعة قصـــائد في مدريد سنـة ١٥٦٩ لم تلق أي رواج . نشروا له بعـــد وفاته رواية « برزيل سيجسموندا » وهي مملوءة بالمفارقات والمبالغات . كما نشرت له مجموعة قصص بعنوان « قصص مثالية » تمتاز بقوة الملاحظة وخفة الروح .

تعريف بالكتاب والمؤلف

قلما يلقى كتاب من الرواج مثلما لاقى كتاب « السيد العبقرى دون كيخوتة دو لامنشا » ؛ فلقد طبع خمس مرات فى السنة التى ظهر فيها فى أسبانيا سنة ١٦٠٦ أيام كانت اعادة طبع كتاب تعد حدثا هاما . وحتى سنة ١٩١٤ كان قد طبع خمسمائة مرة فى أسبانيا ، ومائتى مرة فى انجلترا ، ومثلها فى فرنسا ، وهكذا . ولقد ترجم الى لغات كثيرة ، وأصبح العالم كله ، كما يقول بعضهم ، يضحك معا حول « دون كيخوته » . واستلهم الرسامون الرواية مرارا وتكرارا ، وألفت حولها روايات وأوبرات واستوحاها الموسيقيون وعلى رأسهم يوهان شتراوس وملئت بها كتب الأطفال وصورت لعبهم البطل وتابعه فى مواقف شتى .

ونقف لنسأل أنفسنا ما الذى جعل هذه الرواية تنتشر كل هذا الانتشار وتؤثر كل هذا التأثير . وقبل أن نرد على هذا السؤال لا بد من أن نذكر القصة فى خطوطها العريضة .

السيد العبقرى دون كيخوته رجل تعدى الخمسين من عمره؛ فقير غير متعلم ، ولكنه قرأ كتب الفروسية وفتنته سيرة الفرسان. وذات يوم يقرر أن يخرج الى العالم ليؤدى رسالة الفروسية ليرج الدنيا بأخبار انتصاراته وبسالته وليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا : ليحمى الضعيف من القوى وينقذ الأميرات الجميلات الفاتنات من العذاب ، وليضرب على أيدى المستغلين ، والمنافقين والسحرة ، والمشعوذين .

ولابد للفارس من عدة القتال ؛ فهو يخرج من مخزنه خوذة

مخرومة ، ودرعا مكسورة ، وسيفا صدئا مثلوما . ولابد للفارس من جواد جميل وهذا حصانه المريض الهزيل المملوء بثورا يمكن أن يؤدى الدور . ولابد له أيضا ممن ينصبه فارسا ، وصاحب الحان يقوم فى حانه المتواضع بهذا الدور تحت ضغط الظروف وهو مشدوه حائر مرتبك . والأهم من كل هذا أنه لابد للفارس من حبيبة يستلهم جمالها الباهر الشجاعة فى حروبه والصبر على ضربات القدر حتى ينتصر فيعود اليها كما يعود الفارس فى قصص الفرسان الى سيدته . ومن تكون يا ترى ؟ انها ريفية قبيحـــة فقيرة بائسة فى القرية المجاورة ، قرية يرتفع اسمها الى أن يكون « التوبوسو » ، ويخلع الفارس على فتاة أحلامه الاسم الشاعرى : دولثينا « دولثينا دالتوبوسو » .

وهكذا يخرج الفارس الى مغامراته . ويعيده القس والحلاق الى بيته ليحرقا كتب الفروسية لعله يشفى من لوثته ، ولكنه يعود مرة أخرى الى مغامراته ، وهذه المرة يعود ومعه تابعه الوفى الأمين سانشوبانثا ، فقد نسى فى المرة السابقة أن يصطحب تابعا . وسانشو فلاح واقعى عملى بسيط التفكير ، وحماره الذى يركبه بائس هزيل . ويسير الفارس على جواده والتابع على حماره يمثلان الخيال الجامح معكوسا على الواقع العارى أمام كل موقف من المواقف التى يتعرض لها الفارس . ومما يجعل الأمور تتعقد أكثر فأكثر أن دون كيخوته يعتقد أنه محسود ، وأن قوى الشر تتربص به دائما لأن القدر يحاربه . وعلى ذلك فهو على حذر وهذه طواحين الهواء قد أحالتها قوى الشر فهى عمالقة من الأعداء لحربه ؛ وهذه قطعان الأغنام يحولها السحر الى كتائب من الجند تعترض طريقه وتشهر السلاح فى وجهه . وهكذا يدخل المسكين فى مأزق يسلمه الى آخر ، ويغلفه شر ليكشفه عليه آخر ، ولكنـــه لا يفقد ايمانه ، ويقوم بالخير المصفى دائما وسط كل هذه الشرور

بل رغما عنها . وفى كل مرة يرده تابعه الى صوابه فيأبى فيستسلم التابع لعل خيرا يناله آخر الأمر كما يقول .

الام ترمز هذه الرواية ؟ وهل هى حقا رامزة ؟ ان عبقريتها فى ان البعض يراها قصة ممتعة ساذجة فيجد فيها المتعة التى يريد، والبعض الآخر يراها رامزة أو هى لغز ينطوى على اسرار ، ثم ينطلق ليكتشف سرها سرا تلو آخر فيجد متعتـــه فى ذلك . و لبعض الثالث يراها كالقصص الدينية لها ظاهر وباطن فيحاول تحديد هذا الباطن فيدخل فى تأويلات لا حصر لها ولا أول لهـا ولا آخر ، وفى هذه العملية كلها يجد هو أيضا متعته .

وسواء أكانت الرواية قصة ساذجة ، أم معقدة ، أم باطنية ، فانها ولا شك الى جانب ما قيل انها ألفت من أجله ـ تحمل أكثر من غرض . قيل ان مؤلفها أراد أن يحـــارب بدعة التعلق بقصص الفرسان التى فتن بها أهل اسبانيا وسيطرت على عقولهم فأفقدتهم الاحساس بالواقع . وكان واقع اسبانيا مؤسيا آخر القرن السادس عشر ، ولكن القصة تأبى أن يكون أمرها كذلك . لقد كانت دولة القصص الفارس قد أخـذت تدول من نفسها ، وان زعم بعضهم أن رواية دون كيخوته هى التى قضت نهـــائيا على هذا التيار . والمهم أن التيار لم ينته نهائيا كما يزعمون . ولعل « دون كيخوته » أحيته ، فهى نفسها وان ســـخرت من الفروسية تمجدها وتجعل القراء يعطفون على الفارس الخائب ويتجاوبون مع آماله ويرون ما يراه فى الأهداف والغايات التى يريد أن يحققها .

ثم قيل ان سرفنتيس اراد أن يصور اسبانيا كما هى . لقد عاصر شكسبير ، وكما اســـتطاع شكسبير أن يشـعر الانجليز بانجليزيتهم من خلال تاريخهم فألف رتشاردات وهنريات الخ ..

فكذلك استطاع سرفنتيس أن يشعر الاسبان باسبانيتهم عن طريق « دون كيخوته » .

وحياة المؤلف كحياة أمته اذ ذاك ، صورة من الصعود المثالى الخاطف والهبوط الواقعى السريع . ففى القرن السادس عشر وحده استطاعت اسبانيا ــ بعد أن توحدت قوتها الحربية وسلطانها منذ زواج فرديناند وايزابلا آخر القرن الخامس عشر ــ أن تخوض حروبا توسعية خارج حدودها . وكانت حرب « ليپانتو » التى فقد فيها سرفنتيس ذراعه ، هامة جدا لأنها فتحت أعين الاسبان على حقيقة جديدة هى أنهم يمكن أن يهزموا الترك ويأخذوا أطرافا من امبراطوريتهم . وتخلص الاسبان من اليهود . واكتشف كولومبس أمريكا ، ورفع العلم الاسبانى عليها ، وكان كل شىء يبشر بعصر امبراطورى مجيد . ولكن فجأة يدمر الانجليز أسطول الاسبان « الأرمادا » سنة ١٥٨٨ ، وتسود الفوضى داخل البلاد ، ويضعف النفوذ الخارجى ، وتسترد المستعمرات استقلالها .

وهكذا كانت حياة سرفنتيس نفسه ، بدأ فقيرا ولكنه يتنسم نسيم الحرية واطمئنان العيش فى ايطاليا ، فيدخل الجندية ، ويفقد ذراعه اليسرى « ليزداد مجد ذراعى اليمنى » ــ كما كان يقول . ويخوض بذراع واحدة معركة « نفارين » فى شمال أفريقيا ويعد العدة للعودة الى وطنه ليلقى جزاءه الحق ومجده المنتظر . يعود ومعه خطابات توصية ترشحه لتولى أعمال هامة . وفجأة ينقض القراصنة على سفينته العائدة ، وتكون خطابات التوصية نكبة عليه ، اذ يظن بسببها أنه شخصية هامة فيتغالى عرب شمال أفريقيا فى فديته ، فيظل لذلك خمس سنوات أسيرا ، أسيرا شهما يحاول الفرار مرارا ويفشل ولكنه لا يكذب ولا يوقع بالغير . وأخيرا يعود الى أرض الوطن فقيرا معدما مدينا يعمل فى جمع القمح للجيش أو للحكومة فى الجنوب ويهمل فى

حساباته فيسجن مرتين ، ويقتل رجل أمام بيته فيتهم بقتله فيسجن مرة ثالثة ثم يبرأ من كل هذا . ويكتب فلا يصادف نجاحا ويعيش تعسا منبوذا وهو الذى فقد فى سبيل أمته ذراعا وخاض حروبا اخرى بذراع واحـــدة وعانى الأسر فى الغربة خمسة أعوام .

واخيرا لماذا لا يصور اسبانيا ونفسه والدنيا كلها من حوله فى هذا الفــارس السيد العبقرى « دون كيخوته » . انه فارس انفصل عن الواقع بخيـــاله . والواقع ، فى شكل سانشو ، يرطمه بالأرض فيعلو كالكرة كلمـــا ارتطمت بالأرض قفزت الى أعلى لتعود فترتطم من جديد فى عنف أكيد . ويدور الحوار الحى اللذيذ بين الواقع والخيال . أليس كل ما حوله مفارقات ساخرة ؟ فلماذا لا يسخر ؟! هؤلاء جهـلة يتعالمون وينشرون فى كتبهـــم كلاما جافا يسمونه علما كله ادعاء وغباء . صحيح انه هو نفسه لم يكمل دراسته . ولكن يا للجهل والغفلة ؟ هل الثقافة شهادات ؟ ويبدأ روايته معتذراً فى تهكم أنه لا يستطيع أن يحليها بالهوامش العلمية والاستطرادات البارعة كما يفعل متحذلقو العلم . ويظهر فى المقدمة صديقه يهون عليه الأمر ويدله ـ فى أسلوب ساخر من الناس لاذع ـ كيف يتعالم هو الآخر وكيف يحشو كتابه أو مقدمته على الأقل بهراء مصفى يدعى أنه علم . والادعاء يتخم الحياة من حوله حتى أن « دون كيخوته » الرواية لا تسلم هى الأخرى من شر الادعاء والمدعين ، فهذا منافس مدع اسمه القس آلياجا Aliaga يكمل القصة برواية اسمها « آليڤانيدا » زاعما أنها الجزء الثانى الذى وعد به سرڤنتيس قـراءه فى الجــزء الأول من الرواية . ويثور سرڤنتيس وفى ثورته يكتب الجزء الثانى أخيرا بعـد تسع سنوات ومن يدرى فربما أنه لولا ذلك ما أكمل للقراء ما وعدهم به. وفى الجزء الثانى يعنى باسبانيا المعاصرة ومتناقضات حياتها أكثر

مما يعنى بحياة الفروسية والفرسان . ولكنه رغم كل هذا لا ينال شهرة ولا يفيد مالا ، ويموت بعد عام واحد من انهاء روايته وكأنما هو على موعد مع الموت بعد أن يتم عمله مباشرة .

والرجل الاسبانى بطبعه مزيج من الخفة والعقل يختلط الواقع بالخيال فى حياته اليومية اختلاطا عجيبا . لقد عاشر العرب ثمانية قرون وتعلم منهم كيف يحلق فوق الواقع فيسعده هـــذا التحليق ، وكيف يسخر من الآلام والمصائب ليعود بعد ذلك الى المقاومة من جديد . وروايته تعكس هذا المزاج بكل خصائصـــه الاسبانية ــ العربية : مزاج يجمع بين حلم الماضى الجميل وتطلعات المستقبل الباهر المرجو ، الى الحد الذى يطمس رؤيتنا لحـــدود الواقع وطاقاته ، وبين الادراك الفعلى للواقع المشبع بايمان عميق بدور الحظ والقدر فى حياتنا اليومية . ومن هذه القدرة على الجمع بين الأمرين يكسب قابلية الاندفاع نحو العمل فى سبيل تحقيق الآمال والأحلام .

وهكذا عكست الرواية عقل الفلاح الساذج بكل واقعيته وحكمه العميقة المستقاة من تجارب السنين كما عكست تهويمات الفارس المغامر بكل خياله وغفلته المضحكة الرائقة ، ذلك أنه فى سذاجة سانشو ذكاء أكبر مما ألفنا أن نسميه عادة بالذكاء ، وفى غفـلة « دون كيخوته » ذكاء وخيال أروع مما ألفنا أن نجد عند المغفلين . لقد تحولت مأساة اسبانيا فى القرن السادس عشر الى « أوديسا » خالدة كما تحولت مأساة حياة سرڤنتيس الى رواية رائعة ؛ رواية يجد فيها الباحثون عن التأويلات تأويلات ، والمـــولعون بالألغـــاز والرموز ألغازا ورموزا ، كما يجد البعيدون عن كل هذا وذاك متعة صافية وسخرية لاذعة بارعة .

واخيرا ما الذى يدرج هذه الرواية تحت موضوع الصراع ؟ يقول الحوار انها حرب سنها السيد العبقـــرى « دون كيخوته

دولامنشا » على قيم قديمة ليبشر بقيم جديدة ؛ لقد كان محبا للخير محبا للانسانية مؤمنا بالعدل مؤمنا بالانســـــان فأراد أن يخوض الحرب فى سبيل أعلاء شأن هذه المبادىء التى بها آمن .
ونقول نحن أليست كل حرب تدعى أنها تريد أن تحق الحق وتبطل الباطل ، وأن تمنع الظلم وتقيم العدل . فلماذا لا يدخل هـــذا الصراع الباهر الوقائع البديع الخيال ضمن حروب التاريخ التى صورها المؤرخون والروائيون أحيانا على أنها باهرة الوقائع بديعة الخيال . والله يعلم أنها ماكانت كذلك وما كان يمكن لها أن تكون .
أليست حرب « دون كيخوته » ـ وهو السيد العبقرى كما أسماه سرفنتيس ـ أكثر اثارة وأزخر متعة ؟ ومن يدرى فلعلها تكون أعم فائدة ؟ ولم لا ؟ أليست تصـــلح من النفوس ما لا تصلحه منها الحروب . انها على كل حال بريئة من دم قتلى وآلام جرحى .

سهير القلماوى

الحـــوار

هاملتون باسو(١) جان سترثر (٢) ليمان بريزون

بريزون : يمكننا أن نعتبر دون كيخـــوته من الكتب التى عالجت موضوع الحرب والسلام ؛ لأنه فى حقيقته دراسة تفصيلية لما قد يواجهه الانسان من توفيق أو اخفاق حينما يوطد العزم على تصحيح ما فى العالم من أخطاء عن طريق استخدام القوة . ودون كيخوته هو ذلك الانسان الذى اعتقد أنه بقـــوة ساعده يستطيع أن يصلح كل أمر فاسد ، ولم يكن ساعده بالقوة التى تخيلها فلم ينجح على العموم نجاحا ملحوظا فى اصلاح مفاسد العالم .

باســـو : هذا صحيح . انها قصة فارس اسبانى هرم اتقد خياله بما قرأ من كتب الفروسية وأعمال البسالة، فترك قريته الصغيرة فى اسبانيا لكى يصبح واحدا من هؤلاء الفرسان المتجولين . وبدأ ، على حـــد قوله ، يجوب أنحاء العالم ، وحدث له ما حدث من المغامرات العجيبة المدهشة أبرزها مغامرته مع طواحين الهواء .

بريزون : نعم . فقد اعتقد دون كيخوته أنه يستطيع أن يهزمها بقوة حصانه ، وبصلابة رمحه .

سترثر : ألم يعتبر دون كيخوته هذه الطواحين الهوائيـــة عمالقـــة ؟

بريزون : نعم . وقد دفعه ذلك الى حربها . وحين اقترب

---

(١) Hamilton Basso مؤلف « الحجرة الخضراء » .

(٢) Jan Struther شاعر ، ومؤلف « مسز منيفر » .

منها وجد نفسه فجأة مرفوعا فى الهـــواء . ان سرڤنتيس مؤلف كتاب دون كيخوته الذى عاصر وليم شكسبير ، صور ظروف عصره حين رسـم البيئة التى أحاطت بدون كيخوته ؛ وذلك بالرغم من أن أعمال الفروسية بكل ما فيها من مغامرات الفرسان بدروعهم وسيوفهم ورماحهم كانت تعتبر فى عصر سرڤنتيس من الأساليب القديمة ، حتى فى اسبانيا ذاتها .

ياســـو : نعم هذا صحيح ، أما من ناحية شكسبير فانه حين كتب سلسلة مسرحيات عن « هنرى » كان يصور لنا تاريخا قديما الى حد ما ، فى حين نجـــد أن سرڤنتيس — وهو معاصر لشكسبير كما قلنا — يؤلف كتابا مثل دون كيخوته يصور فيه ظروف عصره الأدبية ، لا لأن عصر الفروسية كان مستمرا فى اسبانيا ، بل لأن جزءا كبيرا من الآدب الاسبانى ، وهذا ما يدعو الى الدهشة ، لم يكن الا قصائد شعرية تصف قصص البطولة فى العصور الوسطى .

سترتر : نعم ، وكان تعليق مدرياجا على دون كيخوته : « ان كتب الفروسية لم تختف بعد ، فهى لا تزال موجودة فى الأفلام وفى القصص المسلسلة . انهـا خلاصة الملودراما التى تنتقل من عصر الى آخر ، وكل عصر يعيد صياغتها فى الصورة التى تناسبه » .

بريزون : لقد أوضح سرڤنتيس أن هذه الأفكار كانت تعتبر عتيقة الى حد ما منذ ثلاثمائة وخمسين سنة ، وما زلنا نعتمد عليها الى حد كبير كمادة للتسلية ، ولعلنا لا نأخذ هذه الأفكار مأخذ الجد كما فعل دون كيخوته . وعلى اية حال فان سرڤنتيس أتم

الجزء الأول من كتابه سنة ١٦٠٥ وكان يقصد السخرية بالفكرة العاطفية القديمة عن الفروسية، ويظن أغلب الناس انه حين كتب الجزء الثانى بعد عشر سنوات من الجزء الأول اتخذ فيه طريقا مغايرا .

ستيرتر : الم يكن الدافع الى كتابته الجزء الثانى هو انه ثار لأن احد الكتاب قد أتم على لسانه كتابة الجزء الأول وسرق شخصياته وأفكاره مما دعا سرڤنتيس الى الاسراع باتمام الجزء الثانى . ويعتقد معى الكثيرون أن هذا الجزء يتفوق على الجزء الأول تفوقا لا يترك مجالا للمقارنة .

باسو : الآن يتضح لنا الخطأ الفكرى الشائع ، وهو القول بأن سرڤنتيس قد ألف هذا الكتاب للسخرية من كتب الفروسية ، فالأمر على العكس من ذلك . فلقد قام سرڤنتيس بتأليفه ليكشف لنا عن أفكار جديدة متخذا من فكرة الفروسية بداية لحديثه .

بريزون : هل تعنى بذلك يا سيد باسو أن الكتاب كان يتضمن قصة تصور فارسا قد اشتط قليلا فى عاطفيته ؟

باسو : بكل تأكيد . فأنا لا أعتقد أن رواية دون كيخوته مجهود فكرى ، بل هى تصوير لعواطف المؤلف وشعوره ، بل وحياته كلها . والواضح جدا أن شخصية دون كيخوته كانت قد شغلت بال المؤلف وقتا طويلا ، وتصويره فارسا له مغامراته كانت مجرد حيلة لجأ اليها الكاتب ليصور لنا ذلك الرجل الذى شغل باله . والدليل على ذلك أننا نقرأ الجزء الثانى من الكتاب الذى كتب بعد سنوات عشر من

ظهور الجزء الأول ، فنجد أن الكاتب نسى تماما تلك الحيلة . ويترتب على هذا أننا لا نجد أثرا لطريقته الأولى .

ستريثر : هذا فى اعتقادى هو السبب فى أن الجزء الثانى كان يفوق الجزء الأول بقدر كبير .

بريزون : هل معنى هذا يا آنسة ستريثر أنك تنصحين قارىء كتاب دون كيخوته للمرة الأولى — وكم أحسد ذلك القارىء — أن يبدأ بقراءة الجزء الثانى منه ؟

ستريثر : لا أنصح بذلك . ولكنى أوجه القارىء الى أن يصطنع كثيرا من التسامح حين يقرأ الجزء الأول ، فلا يتزمت ولا يتشدد .

بريزون : على أية حال ، الجزء الأول هو عبارة عن مجموعة من المغامرات التى يبدو عليها التفكك . والمغامرات تسير على نمط واحد الى حد ما . فهناك دائما ذلك الفارس الذى اقتحم الكثير من المواقف الحرجة وتورط فيها ، وكان يتبعه خادمه القصير القامة « سانشوبانثا » راكبا حمارا وهو غارق فى التفكير ، وكأن لسان حاله يقول : « اننى أعرف أن ما نقوم به يدل على الحماقة ولكن على أى حال سأظل بجانب سيدى عسى أن يصيب خيرا من هذه الحماقات » . وهكذا تستمر القصة من مغامرة الى أخرى ، فمن طواحين الهواء الى الأغنام فى صورة الجيش الزاحف نحو دون كيخوته . ويخيل الى أن أهم مغامرة ، بل أكثر المغامرات سخرية ، هى حينما ينقذ دون كيخوته غلاما من ضربه بالسوط ، لأنه فى اعتقاده لن يسمح باضطهاد آدمى

لآخر فى العالم الذى يعيش فيه . وبعد أن منع عنه السياط التى تلهبه عاد سيده الى ضربه بسياط أكثر واشد مما كان لو ترك لشأنه ، فقد غضب سيده كثيرا من تدخل دون كيخوته . وفى ذلك تكمن كل المفارقات التى استخلصها سرفنتيس من الجزء الأول ، ولكنه لم يستخلص سواها .

ستر ثر : نعم . انه قد أصاب فى تهكمه عند حادثة الفلام اكثر من حادثة الطواحين الهوائية ، أو قصة الأسد ، أو قصة الأغنام . وانني أعتقد أن سرفنتيس قد بدأ كتابة الجزء الأول بطريقة مسلية فجعل الحوادث والقصة رومانتيكية مليئة بالمغامرات ، وهكذا . وحينما بدأ الجزء الثانى من الكتاب كان قد بدأ يتعمق كثيرا فى المضمون السيكلوجى للأحداث . وكان أن اشتد غرامه بالشخصيات التى يصورها مما نتج عنه التخلى عن الاستطرادات والقصص الصغيرة التى تأتى فى سياق الحديث والأوصاف المتعددة التى لا ترتبط كثيرا بلب الموضوع ، وانما قصد بها تسلية القراء .

بريزون : ان هذه القصص تكون أحيانا أشبه بقصص ألف ليلة وليلة ، قصة فى داخل قصة ، وهذه بدورها فى داخلها قصة .

باسو : ان جمال الجزء الثانى من الكتاب فى رأيى لا يرجع — كما تقولين يا آنسة ستر ثر — الى أن سرفنتيس كان عند كتابته قد هام حبا بشخصياته فحسب ، بل يرجع أيضا الى أن هذا الجزء يقدم صورة مدهشة للحياة والخيال فى اسبانيا فى ذلك الوقت . فهو يقدم فكرة كاملة عن حضارة اسبانيا وقتذاك ،

فلقد كانت أمة تحيا فى جو العصور الوسطى رغم ما يبدو فى الظاهر من أنها تحيا فى عهد النهضة الأوروبية .

بريزون : اننى أعجب من أنكما تحدثتما عن هذا الكتاب بعض الوقت دون أن يشير أحدكما أية اشارة الى انه كتاب مرح وفكاهة ، مع أن أجيالا كثيرة كانت تتحدث عنه باعتباره كتاب فكاهة ومرح .

سترثر : شخصية سانشوبانثا لاشك مضحكة جدا . انه ممتع . وأعتقد أن العلاقة بين سانشو ودون كيخوته رغم ما بها من عمق شديد علاقة تبعث على الاغراق فى الضحك .

بريزون : هل تضحكان فعلا عندما تقرآن هذا الكتاب ؟

سترثر : أننا لا نضحك بأفواهنا ، وانما نضحك بقلوبنا .

باسو : انه كتاب مرح دون شك . ولكنه لا يبعث على القهقهة .

بريزون : انه أقرب الى اثارة الشجن فى معظم أجزائه يا سيد باسو .

سترثر : وبخاصة فى النهاية ، وفيه بعض الجمل الجميلة كتلك التى يقولها سرڤنتيس على لسان دون كيخوته حين يرى الأسد ويحاول الايقاع به ، فيقول : « ان الأسد رغم ذلك قد كشف عن لين عريكته ، لا عن الزهو والخيلاء ، ولم يكن فى حالة تحد أحمق كتحدى الأطفال » .

باسو : وهذه الفكاهات جديدة فى نوعها . وأعتقد أن السبب الذى جعل الناس ينظرون الى دون كيخوته على أنه كتاب هزلى يرجع الى ترجمته التى عاشت ثلاثمائة

عام والتى ترجمها مترجم يدعى مارتل . وأعتقد أن مارتل هذا أراد أن يخدم سرڤنتيس بترجمته، ولكنه أخفق . فالذى حدث هو أنه حول هذه الكوميديا الراقية الى كوميديا من النوع الرخيص ، فهذه الترجمة لا تصلح الا نوعا من السيناريو لملهاة هزلية رخيصة .

بريزون : لقد خلت ترجمة مارتل هـذه من الدعابة الذكية والسحر الذي يملأ الأصل الاسبانى للقصة . ورغم هذا أحب الناس كتاب دون كيخوته كما ظهر فى هذه الترجمة .

باســـو : والترجمة الأخـــرى هى لعالم فى الآداب والثقافة الاسبانية يدعى بانتام .

سترثر : هذه هى الترجمة التى قرأتها . وهى جميلة للغاية.

بريزون : فان هذه الترجمة حديثة اذ لم يمض على نشرها أكثر من ثلاث أو أربع سنوات .

باســـو : لقد ظهرت منذ حوالى ثلاث سنوات . ويلاحظ على هذه الترجمة الفكاهة فى اللغة الى جانب الفكاهة فى المواقف كما قالت الآنسة سترثر .

بريزون : انها ليست فكاهة المهرجين .

باســـو : نعم . فليس فيها مبارزة طواحين الهواء أو الوقوع من على ظهر الحصان ، أو ما شابه ذلك .

سترثر : ولا يفوت بانتام ترجمة التوريات أيضا . ومن أعجب الأمور أنه يستطيع ترجمة التورية .

باســـو : انه كتاب عظيم فى الفكاهة . ونوع الفكاهة هنا يختلف عن الفكاهة المألوفة . انه من النوع الهادىء الذى

يجعلك تضحك بقلبك دون أن تقهقه ، كما تقول الآنسة سترثر .

سترثر : كنت أترجم بحثا فى اللغة الألمانية لم ينشر بعد عن دون كيخوته . وبينما كنت أترجم له خطرت لى فكرة لم تخطر لى من قبل ، وهى أن دون كيخوته بعكس فاوست وهملت لم يذكر أيام طفولته اطلاقا . فقد نسى الريف الذى كان مسرح طفولته . انه رجل بدون طفولة . انه الشخصية العظيمة الوحيدة فى الأدب التى تقف صامتة تجاه أيام الصبا . واننى أتساءل: ترى هل كان من قبيل المصادفة أن دون كيخوته كان فى الخمسين من عمره وأن سرفنتيس كان فى نحو هذه السن حين شرع فى كتابة هذه الرواية أى الفصل الأول منها .

بريزون : نعم . لقد نشر الجـــزء الثانى قبل أن يموت بعام واحد ، فقد مات فى السابعة والستين . ترى هل كان ذلك نتيجة لأنه حين بدأ كتابة الجزء الأول لم تكن له عنـــاية كبيرة بالتصـــوير الفنى المرهف للشخصيات . لقد كتب لمجرد أن هذا النــوع من البشر قد شاقه واستهوى قلبه ، فأراد أن يكتب رواية مغامرات ، وأراد لها النجاح . انه لم يحصل من كتابه على المال بل حصل على شهرة كبيرة ولايبدو أن هذا قــد أرضــــاه كثيرا رغم ما كان فى حياته الشخصية من روح رومانسية . ترى هل يرجع السبب فى هذا الى أنه لم يكن عميق الاهتمام برسم الشخصيات ؟

سترثر : هذه نظرية لتفسير تلك الظاهرة ، ولكن توجد فى

المخطوط الألماني الذى أترجمه تفسيرات أخرى ؛ منها أنه رجل حتمت عليه ظروفه ألا يعترف بأنه سيموت لأنه كانا مصابا بما ندعوه الآن بالبرانويا ، لهذا لم يكن يعترف بالزمن ولا الذاكرة — ولم يستطع أن يسمح لنفسه بالتفكير فى الماضى ؛ انها نظـــرية طريفة .

باســـو : اعتقـــد أن هذا رأى له ما يؤيده . وأنا لا أريد أن استدرج الى الكلام فى تأييد هذا الرأى لأنى أخشى أن يجرنا هذا بعيدا عن الموضـــوع الى تعقيدات سيكولوجية لا تنتهى . لكنى أعتقـــد أن فى ماضى سرفنتيس شيئا لا يريد سرفنتيس أن يتذكره . ودليلنا على هذا الرأى هو ما نجده فى الجملة الأولى من الكتاب حيث يقول : « فى قرية لامانكا ، هــذه القرية التى لا أحب أن أتذكرها . . » فهو يقدم لنا هذا الاعتراف ثم يتخلص منه . ولكنى أميل الى موافقة السيد بريزون فيما يختص بالجزء الأول . . فماذا يغرى سرفنتيس بتذكر أيام طفولته ؟

بريزون : بعد هذه البداية نراه قد جعل شخصياته تتحرك الى الأمام . اذن فهو لا يرتد الى الوراء . ولكن هذا ليس بالشىء الوحيد الذى يعيب تصويره لشخصياته بالقياس الى ما يتبع عادة فى رسم شخصيات الأبطال الكبار . انه لا توجــد فى الكتاب تقريبا عـــلاقة غرامية .

سترثر : لا توجد علاقة غرامية حقة .

بريزون : ان دولثينا هى عبارة عن شخصية بعيدة عن الواقع ، محايدة المشاعر .

ستـرثر : كان عليه أن يجد شخصا يطارحه الغرام ؛ اذ كان ذلك طابع كتب الفروسية ، وقد قال دون كيخوته نفسه : « الله وحده يعلم هل توجد دولثينا فى هذا العالم أم لا توجد . فأنا أتأملها كما ينبغى لها أن تكون » .

بريزون : نعم فدولثينا هى النموذج المثالى وليست المرأة الواقعية . والمرأة الواقعية الوحيدة فى الكتاب كانت فلاحة صغيرة ليس لها أهمية فى القصة ولكن سرفنتيس نظر اليها وكأنها السيدة العظيمة أو بطلة القصة .

ستـرثر : لقد كان مضطرا الى ذلك ؛ فقصة الحب الحقيقية فى الكتاب هى تلك التى بين سانشوبانثا وحماره الرمادى الصغير .

باسـو : انها قصة غرامية طريفة .

بريزون : يبدو لى أن هذه كانت عادة سانشوبانثا فعلا ؛ فهو لم يحب زوجته أو أسرته ، ولكنه أحب حماره الصغير الرمادى لأن هذا الحمار كان ينفعه ؛ فقد كان يركبه فى كثير من مغامراته المضنية .

باسـو : لا تظلم الرجل ؛ فقد كان سانشو أبا حنونا بطريقته الخاصة كما كان زوجاً مخلصا .

بريزون : هذا حق . ولكن الآنسة سترثر تقول ان قصة الحب كانت بينه وبين حماره ، وبمعنى آخر ان حبه الوحيد كان لخادمه الذى أدى له أشق الأعمال .

سترثر : اننى أخالفك فى ذلك . فلم يكن هذا عدلا . فقد كان سانشو تعسا أشد التعاسة حين فقد حماره ، وكان من السهل عليه أن يجد بديلا عنه فى أسبانيا .

ولما عاد سانشو الى حماره بعد تجربة الحكم التى انهكت أعصابه قال سانشو موجها الحديث لحماره:
« حينما كنت معك لم يكن لى من هم غير اصلاح سرجك واعداد طعامك » .

باســـو : نعم ان الحب الحقيقى الموجود فى الكتاب هو فعلا ذلك الحب بين سانشو وحماره الرمادى .

بريزون : واظن ان هذا من الأشياء الطريفة فى الكتاب ، كما أنه يصور شخصية سانشو نفسه .

باســـو : ولكنها ليست قصة غـرام . فلا يمكن أن يعطينا الكتاب قصة غرامية . فهو كتاب عن الفروسية ليس غير ؛ عن فكرة الفروسية بأكملها . وهذا هو الذى يقرب الكتاب من فكرة الحرب والسلام . ان الكتاب يقدم الصورة المثالية للفروسية ، وهى لم تكن تشبه على الاطلاق الحقائق الواقعة فى عصر الفروسية . وفكرة الفروسية وفكرة الشهامة وفكرة الشرف ليست من الأفكار التى عفى عليها الزمن . واذا كان لدى الأطفال الأمريكيين اليوم فكرة عن الفروسية فهى فى اعتقادى مستقاة أساسا من مغامرات رعاة البقر .

بريزون : حقا .

باســـو : فى أفلام رعاة البقر نجد الكثير مما يتردد فى فروسيات دون كيخوته . والفرق بينهما هو أنهم يسبغون عليها ثوب رعاة البقر . أما بشأن الحـرب فاننى لا أصدق أن مثل الفروسية لا تزال تنطبق عليها ؛ اذ يقال عن الحرب اليوم انها مبارزة بين مصـــنع وآخر . ومن المعقول جدا أنه ليس هناك من مصنع يعنى بالفروسية . ولكن أعمال الفروسية هذه كان

لها طابعها ورونقها لحقبة طويلة من الزمن ، فكانت قائمة أيام حرب أمريكا الأهلية ، الحرب بين ولايات أمريكا ، واتضح بعد هذه الحرب أن سدنى لانير شاعر ولاية جورجيا كان له فعلا فرقة من رمـــاة القوس والسهم .

بريزون : هذا ما نسمية بالكيخوتية .

باســـو : اظن أن المزارع القديمة فى الجنوب لا تزال تعمل بطريقتها ، بل لعلها المعقل الوحيد الذى لم تزل تتجسد فيه فكرة سير وولتر سكوت عن العالم . وفكرة المزرعـــة الجنوبية هذه نقلها اللاجئون من الجنوب الى تكساس بعد الحرب الأهلية الأمريكية . وكان هؤلاء اللاجئون هم الذين أدخلوا شيئا من هذه الثقافة الى ولايات الغرب ، ومنها نشأت أساطير الغرب الحالية .

بريزون : هذه الفكرة التى تحوم حول راعى البقر الهمام الذى يتجول من مكان لآخر منقذاً الفتيات الجميلات من سارقى الخيول والماشية الى آخـــر ما يمكن أن يسرقوا . وبعد أن ينقذهن يتركهن لمغامرة أخرى دون أن يقع فى غرام احداهن .

باســـو : لا يمكن لراعى البقر المتجول أن يقع فى حب فتاة أو أن يتزوجها . ان هـــذا معناه أنه لن يظهر فى الحلقة الثانية من المسلسلة فى الأسبوع التالى .

بريزون : انك تجد نفس الشىء فى معظم أدب غرب أمريكا . وتجده من وقت لآخر فى مغامرات الفروسية حين تبلغ أوجها الفنى كما هى الحال مثلا فى الفيلم الشهير : « آن الأوان (١) » .

---

(1) High Noon

باســـو : انه فيلم رائع فعلا .

بريزون : نرى فى هذا الفيلم بعض الأشياء التى توضح لنا أنه من الممكن أن نأخذ مثل هذه الموضوعات مأخـذ الجد . فالفروسية متمثلة فى الرجل الذى لا يعنيه الا شرفه لا يزال يمكن أخذها مأخذ الجد . ان الحرب الحالية قد لا تتيح للفرد فرصة المخاطرة والمجازفة والشهامة ، بل انها قد لا تتيح للفـرد فرصة غير الموت . لكن لا يزال هذا المثل الأعلى ينبض بالحياة .

باســـو : اظن أن هذه الفكرة كانت موضوع احدى قصص همينجواى .

سترثر : ولكنها فكرة اسبانية بحتة .

بريزون : ولكن كيف يفسر لنا هذا الموقف . اذا كان سرفنتيس يهزأ ويسخر ويتهكم من الفروسية حتى أصبحت الكيخوتية تعنى البطولة الحمقاء طوال ثلاثمائة سنة، فكيف اذن يمكن أن نظل على ايماننا بالأمور التى حاول أن يتهكم عليها .

سترثر : لأن البطولة الحمقاء هى من الأشياء القليلة الباقية التى تستحق الايمان بها .

باســـو : اننى اوافقك على ذلك . ولكن سرفنتيس لم يهزأ من الفكرة ، بل من المغالاة الشديدة التى كانت تصورها قصائد الفروسية وكتبها ، فالكاتب الذى غرق فى بحر من القصص التاريخية واحدة بعد الأخرى ، وكون رأيه فى الحياة كلها على أساس هذه القصص، من الممكن أن يخرج هذا الكاتب الى العالم ويحاول أن يصوغ سلوكه على هدى ما قرأ . ومن الممكن لمثل هذا الشخص أن يقع فيما وقع فيه دون كيخوته

من المواقف المحرجة المضحكة ، على أن سرفنتيس لم يهاجم سلامة فكرة الفروسية ؛ ففكرة الشرف والشجاعة ومساعدة الضعيف ، كل هذه أفكار نبيلة ، ولا أظن أن سرفنتيس قد قصد أن يحطم هذه الأفكار بأية حال من الأحوال أو حتى يشكك فى صحتها . فهو نفسه كان من هذا النوع من الرجال، ويجب أن نفكر دائما فى سرفنتيس على أنه جندى قديم ، فهو لم يكن أكثر من ذلك .

بريزون : نعم جندى قديم أصيب بجراح من أجل بلده ولم يجز على هذه التضحيات . فلابد أنه كان ذلك الفارس المثالى وقتا ما .

سترثر : نعم . فقد وردت فقرة رائعة يصف فيها سانشوبانثا سيده دون كيخوته ، فيقول : « انه متواضع مع المتواضعين متكبر مع المتكبرين ، شجاع فى وجه الخطر ، قاس اذا لزم الأمـــر ، يحب دون ابداء الأسباب ، يقبل على فعـــل الخير ويكره الشح والبخل . وفى كلمة واحدة هو فارس جواب آفاق وحسبه هذا الوصف » .

سهراب ورستم

Sohrab and Rustum

آرنولد

Arnold

آرنولد

ماتيو آرنولد ـ (١٨٢٢ ـ ١٨٨٨) شاعر انجليزى وناقد من أبرز رجال التعليم . ولد فى «لالهام» . درس فى مدرسة « راجبى » حيث عمل ابوه ناظرا ، ثم درس فى اكسفورد ونال فى كل منهمـــا جائزة على شعره ، عمل سكرتيرا خاصا ثم مدرسا فى « راجبى » ، ثم أستاذا فى أكسفورد سنة ١٨٥٧ . ولكن العمل الذى استغرق حياته الوظيفية كان التفتيش على التعليم لمدة خمسة وثلاثين عاما (١٨٥١ ـ ١٨٨٦) . وفى هذا رحل الى فرنسا وألمانيا وهولندا ، وله تقارير عن التعليم والمدارس والجامعات فى اوروبا مطولة ومعروفة . وكان أثره فى تطور التعليم كبيرا . وفى آخر أيامه زار أمريكا مرتين .

نشر مجموعتين من الشعر سنة ١٨٤٩ و ١٨٥٢ ممضـــاة بالحرف الأول (أ) ثم نشر سنة ١٨٥٣ أول ديوان باسمه كاملا ، وفيه بعض ما انتخب من المجموعتين السابقتين سنة ١٨٥٥ ، ثم نشر مجموعة شعر أخرى عين بسببها أستاذا للشعر فى اكسفورد سنة ١٨٥٧ حيث استمر عشر سنوات . وفى سنة ١٨٥٨ نشر التراجيديا الكلاسيكية « ميروب » ، وبعد تسع سنوات نشر مجموعة أخرى من الشعر .

وفى أثنـــاء عمله فى أكسفورد نشر مجموعات من المقالات النقـــدية ثبتت اسمه ناقدا . « ترجمات هومير » سنة ١٨٦٠ . « ترجمة هومير بين النظرية والممارسة » سنة ١٨٦١ . مجموعات نقدية جزء أول ثم ثان . وفى سنة ١٨٦٩ نشر « الثقافة والفوضى » .

له دراسات فى الدين « الله والكتاب المقدس » سنة ١٨٧٢ و «الكنيسة والدين» و « بروتستنتية القديس بولس » الخ ...

قرن بين آرائه فى الدين والمجتمع والتعليم وبين النقد الأدبى ليستخرج نظرياته . مات بالقلب فجأة سنة ١٨٨٨ .

تعريف بالكتاب والمؤلف

سمع « زال » ابن حاكم الهند والسند بجمال « روذابة » بنت « مهراب » ملك « كابل » فعشقها . وحالت الأوضاع السياسية بين البلدين دون هذا الزواج الذى بشر المنجمون بأن سيكون منه مولود يملأ الدنيا فخرا ومجدا . وبعد استعطاف الملك « منوچهر » ملك فارس تم الزواج فولد « رستم » . ولقد لاقت أمه فى ولادته آلاما أسطورية لضخامته ، فلما رأته قالت : « برستم » ، أى خلصت . ووضع رستم نفسه فى خدمة ملوك فارس .

وبدأت الأساطير تعى مغامرات وحروبا بطلها رستم الجبار الذى يشق الأرض ، وتزلزل له الجبال ، وتفتت فى طريقه الأحجار ، ويهزم الانس والجان . واستنجد به الملك « كيكاوس » وقد أوقعه الملك « مازندران » وشياطينه فى الأسر ، فركب جواده « الرخش » وفك اسار كيكاوس وهزم العدو ، بل هزم معه جنه وشياطينه . وكذلك هزم رستم « پيران » قائد التورانيين ومن معه من الحلفاء العظام يوم استنجد به الملك « كيخسرو » . لقد كان رستم عماد فارس فى الحرب طوال العهد الخرافى .

وخرج رستم للصيد مرة فنام ، وسرق بعض الناس « الرخش » جواده ، فدخل مدينة « سمنجان » ليبحث عنه ، فرحب به ملكها واستضافه . وجاءته ابنة الملك ليلا تطلب أن يكون لها منه ابن فى مثل شجاعته . فأعطاها خرزة نادرة تشدها على عضد المولود ان جاء ذكرا . وفى الصباح وجد جواده ورحل . وشب الطفل سهراب وعرف من أبوه ، وبرز فى فنون الحرب ، وتطلع الى اليوم الذى

يلقى فيه أباه . ولكنه تطلع أيضا الى ملك الفرس والتورانيين معا. وخطط لذلك بأن يبدأ بكيكاوس ملك الفرس ، حتى اذا فرغ منه اتجه الى « افراسياب » ملك التورانيين . ولم يعرف افراسياب من خطط سهراب شيئا ، ولكنه فرح بهجوم سهراب على كيكاوس فشجعه وعضده ليريحه من عدوه . وبعث معه من يعرف قصته ليحول دون لقاء الابن مع أبيه حتى لا يتفقا معا عليه . وربطت الأم الخرزة الى عضد الشاب سهراب وودعته وهى توصيه بأن يسعى الى لقاء أبيه رستم .

وقوض سهراب خيمة كيكاوس فخرج اليه رستم يدافع عن ملكه ، وتبارز الابن والأب دون أن يعرف احدهما الآخر . وشك سهراب ، لما رأى ضخامة عدوه وشجاعته ، فى أن يكون هو رستم حسب وصف أمه لأبيه ، فسأله .. ولكن رستم أبى أن يجيب اجابة شافية . ويئس سهراب من لقاء أبيه وعادت المبارزة . ودامت المبارزة نهارا كاملا واظلم الليل واستراح الفارسان . وفى الفجر تلاقيا كل على جواده . وكان سهراب قد ضرب رستم ضربة قوية فجاءه فى حنان يسأله عن حاله بعد راحة الليل ، واخـذ يعرض عليه وقف القتال . ولكن رستم الذى دوخ الجيوش وهزم الانس والجان ظن ذلك خديعة ، فرفض ، وترجل الفارسان وبدأت المبارزة فى يومها الثانى . وكاد سهراب يهزم رستم فاستمهله فحن اليه وقبل الهدنة . وفى الجولة الثانية جرح رستم سهراب جرحا بالغا مميتا . فلما رأى سهراب الموت ذكر أمه وحدث رستم عن البيت والأم . وشك رستم فكشف سهراب عن عضـده فاذا الخرزة العلامة . فأظلمت الدنيا كلها فى وجه رستم وصرخ صراخا صدع الجبال . وعاد حاملا ابنه وقتيله ، وهو اغبر الوجه أشعث الشعر سائل الدمع ممزق الثياب معفر الراس بالتراب الذى أهاله عليه حرقة وندما . واخذ يتلقى عزاء الاخوان فى ابن له كم ذا تمنى ان يكون له مثله .

هذه هى الأسطورة البطولية التى بنى الشاعر الفردوسى الفارسى عليها هذا الجزء من الشاهنامة رائعته المشهورة . وترجمت أجزاء من الشاهنامة فى عصر آرنولد وذاعت ، فبنى عليها أرنولد قصيدته الملحمية : « سهراب ورستم » . وهو يصور كل هذه الأحداث بتغييرات طفيفة ويقف بها عند حد هذه المأساة فلا يتتبع نهاية رستم ؛ وكانت مأساة ثانية عندما قتل على يد أخيه « شماذ » . ان التراجيديا اليونانية التى اهتم بدرس أصولها وكتب مقدمة تراجيدية « ميروب » عن النسق التراجيدى اليونانى الذى طبقه طبق الأصل جعلته يأنس الى مأساة القدر أنسا عجيبا . كذلك قوى هذا الميل والأنس دراسته لهومير فترة هامة من أيام تدريسه باكسفورد .

لقد وجد فى التراجيديا اليونانية نفسه ، وأحس أنها أصدق ما يمكن أن يعبر بها عن حاله وعن عصره ، وقد أحس هو وأهل زمانه الانفصام عمن حوله . ان الانسان فى زمانه قد أصبح جزيرة وحده ومأساته فى صرخاته المدوية التى يعبر بها عن حاجته الى الاتصال الانسانى الروحى المكين والتى تذهب سدى . ان الانسان يسعى ليتوحد مع غيره ، ولكن جهوده فاشلة وسعيه باطل . وشغلت غربة الفرد فى المجتمع عقل آرنولد منذ صباه ، فمجموعة شعره الأولى عنوانها : « الحالم الهائم » ، وفيها قصيدته الرائعة « المرمان » (نصفه انسان والنصف الآخر سمكة) . ومجموعته الثانية سماها باسم « أمبيدوكليس فوق جبل اتنا » حيث ينفصم الشيخ من قومه فيصعد الجبل وهناك يشقى بوحدته كما شقى من قبل بوحدته مع قومه . ونفس الموضوع يكرر فى قصائد « الملك المريض فى بخارى » وفى « العالم الجان » وكثير من قصائده .

ودفعته مأساة الغربة والانفصال الى الخيال لعله يكون ملاذا من روح العصر : روح الغباء والأنانية والجهل . هذا العصر الذى هاجمه أعنف مهاجمة شاعر « شرتروز الكبيرة » اذ يقول انه عصر :

هائم بين عالمين : عالم ميت
وعالم آخر عاجز عن أن يولد

انه عصر ذابت فيه المعتقدات الدينية ولم يجد الناس عنها بديلا . لقد فر بعض شعراء النصف الأول من القرن التاسع عشر الى الطبيعة يتحدون معها ويجدون أنفسهم فيها . ولكن آرنولد لم يجد نفسه فى الطبيعة . وأحس الألم من مجتمع خيب ظنه بكل طبقاته . وذاعت عنه تعابير قاسية ضمنها نقده للمجتمع فقد قسمه الى « برابرة » ارستقراطيين ملكوا الأشياء الجميلة وافتقروا الى الذكاء فأساءوا فهم الجمال واستعماله ، وقد عفى الزمن عليهم ولا يمكن للأفكار الحديثة أن تجد سبيلها الى رؤوسهم . أما الطبقة الوسطى طبقة « المنافقين » كما يسميها فهؤلاء جهلة اغبياء ، ومن غبائهم نراهم راضين عن أنفسهم . وأما الطبقة الدنيا فهى فجة عمياء ولا يمكن لها أن تقوم بأى دور فى المجتمع . ان الثقافة وحدها هى التى يمكن أن ترفع كل هؤلاء الى مستوى الدور الذى يجب أن يقوموا به . ومن هنا جاء تحمسه للتعليم . وقد درس على الطبيعة طرقا كثيرة وتجارب واسعة قوية فى فرنسا وألمانيا وغيرها وكتب مذكرات عنها ، منها ما كان يعتمد عليه البرلمان نفسه فى اصلاح التعليم فى انجلترا . لقد أصلح أبوه مدرسة « راجبى » وأدخل فيها العلوم الحديثة ، وعامل الطلاب معاملة مباشرة فأثر فيهم وفى تكوينهم ، وتسلم من أبيه نفس الرسالة بتوسع اكبر فشمل التعليم كله فى الدولة . ولكنه حنينا لراجبى أو احقاقا للحق لا ندرى كان يضغط على أهمية التعليم الثانوى « شيء واحد نحتاج اليه نحن الانجليز ، هو تنظيم التعليم الثانوى » ، هكذا كان يقول آرنولد . ان الفضل يعود الى ايمانه القوى فى أن أصبح التعليم من أهم ما تعنى به الدولة ؛ فلقد نادى بأن التعليم يجب أن يكون مركز اهتمام الدولة وواجبها الأول نحو الشعب . وبذلك كان يخالف

اوضاع التعليم الحر الذى سارت عليه انجلترا زمانا طويلا . بل كان يرى وجوب التخطيط العام فى هـــذا الميدان وضرورة تطور التعليم ليناسب حاجات العصر . ان التاريخ يذكره ناقدا أكبر منه شاعرا ولكن تاريخ التعليم يجب أن يبوئه المقام الأسمى . ولا ننسى انه كرس للتعليم خمسة وثلاثين عاما هى زهرة عمره كله .

ولكن اهتمامه بفساد العصر وايمانه بأن ذوبان الاهتمام الدينى والايمان بالله من أسباب عزلة الانسان فى هذا العصر وتعاسته شغله بموضوعات الدين ، فألف فيه كتبا كثيرة . وكان يؤمن أن الدين يجب أن ينبع من واقعنا الذى نمارسه . ان الدين اذا تخلى عن تفسير الواقع وربطه بكل القوى من حوله فانه لا يعود يحيا . يقول : « اننا نقترب من الدين لا بالايمان بمعجزاته ، وانما بفهم حاجتنا اليه وبقدرة الدين على تفسير ما نعجز عن تفسيره من تجارب الحياة من حولنا ؛ من هنا يجب أن نبدأ . انى أرفض الدين كما هو الآن ولكنى مؤمن أن الدين لابد منه » .

ولكن الدين لم يحل له مأساته . لقد ظل ممزقا بين الرغبة فى الاتحاد والرغبة فى الانفصال . ان الحب الذى هو أقوى تجربة اتحاد مع الآخر فى حياة الانسان لم يلعب دورا هاما فى حيـــاة آرنولد . لقد أحب « راشيل » ممثلة فرنسية وله قصـــائد فى « مرجريت » أحلاها قصائد الفراق الذى أراده وفرضـــه على نفسه ، وتزوج « فرنسيس لوسى » ، وهى ابنة قاض من أصدقائه . ثم لا نعرف عن تجربة الحب فى حياته أكثر من هذا .

وامتلأ رأسه بفلسفات ونظريات ، وبخاصة اليونانية منهـا والأوروبية . لقد تأثر بأربعة كما يقول فى رسائله لنيومان : سانت بوف وجوته ووردزورث ونيومان الذى كتب اليه بذلك . ومن هنا امتاز أسلوبه بالوضوح المنطقى المأثور عن اليونان ثم الفرنسيين، كما امتاز بالحيوية والذكاء .

أما شاعريته فكانت غنية ثرة لم يفرغ لملكته ولم يرعها فى المقام الأول ؛ فلقد شغل بالتعليم كمهنة ، كما شغل بنقد الحيـــاة من حوله وجعله محور دراسة صورة الحياة فى كتب الأدباء ، أى فى النقد الأدبى . ولكن شاعريته ذات حس فطرى غنائى عذب واضح يهتم فيها بالموسيقى التى تتنوع وتأتيه الأوزان عفوا دون معاناة ، كما كان يهتم بتخير اللفظ البسيط الموحى .

وعكست سهراب ورستم كل الآثار التى برزت فى حياته . قسوة المجتمع متمثلة فى منظر الجيشين يرقبان مبارزة مأسوية دون أن يعرفا شيئا أو يتأثرا بشىء . وهذا الشقى الشرير الذى يعرف أمرهما ـ ولكنه حرصا على الدنيا ـ يريد لهما ألا يتعارفا حتى لا يتجنبا المأساة . وكأنما البطلان منفصلان وحـدهما عن المجتمع كله . وهذا ابن يرى فى أبيه مثله الأعلى ثم لا يصل الى التوحد أو الاتحاد معه ، وانما تكون ساعة اللقاء هى نفسها ساعة الوداع . ولعل هذا كما يقول الحوار حول الكتاب انعكاس للانفصام الذى أحسه آرنولد بين شخصيته وشخصية أبيه هو . فليس مصادفة أن يبرز أبوه فى ميدان التعليم وأن يكون مثله الأعلى ثم لا يرثيه الا بعد موته بسنوات طويلة وبقصيدة رائعة هى « مصلى راجبى » . لقد كان كل شىء يدعو الى أن يتفجر حزنه قبل ذلك بكثير . ولعل رثاءه لصديقه « كلف » فى « ثرسيس » كان أطول وأقوى وأبرع . وهو بطبعه متقن للشعر المأسوى الحزين . ويلعب القدر دوره كيفما شاء هذا القدر الذى آمن به آرنولد فاذا النتيجة مأساة الحروب ؛ مأساة مجتمع بنى نفسه على حروب لا تنتهى وكأنما أرادها أن تشغله عن واقعه المرير ، بدل أن يسعى الى فهم هذا الدافع والى تغسيره والصعود به نحو الكمال السعيد .

ومأساة الحرب فى الفرد أقوى . انه يقف بنا فى القصيدة أمام ذكريات الأم والبيت والاستقرار فيما يقص الشاب الجميل الجريح

على أبيه ، فاذا كل هذه الحياة الهنيئة الجميلة وقد عكست صورتها على خلفية عظيمة من النهر الكبير والجبال والرمال التى برع فى رسمها الفنان الشاعر فتجعل التناقض بينها وبين ما جره القدر بالموت من الانفصام الأبدى بين الأب والابن يحز فى النفس ويشعرها بمأساة الانسان فى صراعه نحو اللقاء او الاتحاد مع الغير .

لقد رسم آرنولد مأساة الانسان فى عصره : مأساة الضياع على لوحة أسطورية فارسية وبذلك قدم ما يجب أن يقدم الشعراء لأمتهم . لقد لام الشعراء فى زمانه لأنهم « لم يربوا ولم يوحوا بشىء لمجتمعهم فعجزوا لذلك عن أن يغيروا فيه شيئا » . ان مهمة الأديب فى نظره هى « نقد الحياة » ، مهمته « أن يعطى الناس فهما تاما لموقف العصر كله » . وبذلك يكون الشاعر فى نظره وسيلة للخلاص من الشقاء فى المجتمع . واستخدم آرنولد الحرب لأنها الوسيلة الكبرى للانفصام الروحى والانفصام المادى الأكبر : الموت .

وفى سهراب ورستم تصعد الحركة بسرعة نحو اللقاء والتوحد بين الأب المفصوم عن ابنه حتى تصل الى الذروة فتنزل فجأة بتكنيك تراجيدى يونانى فوق الواقع المأسوى فترتطم به ارتطاما عنيفا أليما . وبهذا ضمن آرنولد كراهة الناس للحرب المحقق الأكبر للانفصام الروحى والمادى .

الحـــوار

ى. د. هـ. جونسون (١) فرجيليا بيترسون (٢) ليمان بريزون

بريزون : ان قصيدة سهراب ورستم لماثيو آرنولد هى ملحمة طويلة تصف الحرب الرومانسية والسلام . وهى أيضا مأساة العلاقات الشخصية . انها تمثل نزاعا ملحميا بين بطلى جيشين متحاربين ؛ نزاعا شائقا دائما فى حد ذاته .

جونسون : انها كما هى شائقة ، وبخاصة أن البطلين المتحاربين هما أب وابنه لا يعرفان الصـــلة بينهما وهما فى حومة الوغى .

بيترسون : أن هـــــذه الملحمـــــة تعتبر من أكثر القصص الرومانسية اتساما بالطابع الحديث ، والرومانسية هنا ليست بالمعنى الشائع . انها تتناول الخلجات النفسية الرائعة عند سهراب ورستم ، أى عند أب وابنه وهما يقتتلان فى المعركة دون أن يعرف أحدهما الآخر . فتصف هذه الخلجـــات فى عبـــارات سيكولوجية حديثة بحيث يمكن اعتبارها دراسة لما يبعث على الكبرياء وما يبعث على العناد . انه لأمر بالغ الطرافة أن ماثيـــو آرنولد كان يفكر بنفس الطريقة التى نفكر بها .

---

(١) E. O. H. Johnson أستاذ اللغة الانجليزية بجامعة برنستون .

(٢) Virgilia Peterson ناقدة ومحاضرة .

بريزون : بالطبع . فماثيو آرنولد لا يعد من القدامى . غير أنه فى كتابته كان الى حد ما جامـد التفكير كأى فكتورى لم يسمع بتاتا بكلمة السيكولوجية ، وان كنت أعلم ان بغض الناس قد سمعوا بها قبل زمن فرويد .

بيترسون : سيكون قد مضى على كتابة هذه الملحمة مائة عام عند حلول العام القادم .

بريزون : انى لا أعتبرها حديثة بهـذا المعنى . ولكنى حين وصفت الحرب بالرومانسية كنت أعنى الجيوش المتحاربة بملابسها الحربية الفارسية القديمـة الزاهية الألوان ، و'ن القتال كان بالسيوف وعلى ظهور الخيل ، وصرخات الجنود ترن فى سـهول آسيا الوسطى الشديدة الرياح . وهذا هو المعنى الذى قصدته بالرومانسية . فأنا لم أقصد المعنى الآخر للرومانسية ، وهو أنها غير حقيقية .

جونسون : انها أيضا رومانسية بهذا المعنى الأخير ، لأنها تمثل تقاليد الفروسية وتقاليد الشهامة ولأن الخطيئة الكلاسية هنا التى نلوم مقترفها عليها هى كبرياء الأب الذى سنحت له الفرص العديدة طوال هذه الملحمة لأن يعرف أن سهراب ابنـه ، ولكنه لم ينتهزها .

بريزون : دعنا نرجع الى قصة الملحمة ، هل تتفضل يا سيد جونسون فترويها لنا ؟

جونسون : تتلخص القصة كما يرويها آرنولد فى أن جيش التتار وجيش الفرس تقابلا على ضفاف نهر الأكسوس ، وحرصا على عدم اراقة الدماء . يذهب سهراب بطل جيش التتار ويقول لقائده : « لن نحارب اليوم ، ولكنى سأتحدى بطل جيش الفرس فى مبارزة على

أن الفوز فى هذه المبارزة يعتبر انتصارا للجيش الفــــائز » .

بيترسون : اراد سهراب أن يبارز رستم شخصيا ، أو على الأقل كان يبغى لقاءه ، لأنه أبوه وكان يبحث عنه منـــذ وقت طويل .

بريزون : ولكن سهراب كان ابنا غير شرعى . أليس كذلك ؟

بيترسون : لقد عرف سهراب أباه . ولكن رستم لم يكن يعرف أن مبارزه هو ولده لاعتقاده أن ابنة ملكة أذربيجان قد ولدت له بنتا .

بريزون : ابنة الملكة التى هجرها رستم منذ زمن بعيد والوليد فى بطن أمه .

بيترسون : وقد أشاعت الأم حينذاك أنها أنجبت بنتا خوفا من استيلاء رستم على الطفل فقد أحبت أن تخلص ابنها من شرور الحروب ومن المصير الذى لقيه بعد ذلك .

بريزون : اذن أمامنا الآن أب وابنه لا يعرف أحدهما الآخر ، وهذا فى حد ذاته من أعنف المواقف الدرامية لأنه من المحتـــــم أن تقع الكارثة أو المأساة حين يعلم المنتصر صلته بالمهزوم بعد فوات الأوان .

جونسون : مما يزيد من عنف الدراما أن رستم كأخيـــل فى الالياذة كان قابعا فى خيمته ناقما على تخطيه فى قيادة الجيش التى آلت لمن هو أصغر منه سنا ، حتى انه كان غير مرحب فى هذا اليوم بالمبارزة ، رغم أنه كان بطل الجيش الفــارسى وكان من أثر كبريائه أنه لما قبل المبارزة أصر على أن يكون متنكرا ومجردا من رتبة العسكرية .

بريزون : فى هذا الصدد يقول رستم البطل الشهير : « نعم سأبارز بطل جيش التتار بشرط الا يعلم أحد أننى أعظم مقاتل على وجه الأرض » .

بيترسون : وقد وافق رستم على المبارزة عندما قال له الرسول الذى كان يبلغـــه الخبر : « انك تضن بقـــوتك وشجاعتك وبطولتك . وسوف يقول النـــاس ان رستم لا يود المخاطرة بنفسه مرة أخرى » . وهنا ثارت كبرياء رستم ونهض نهوض المحاربين العتاة.

جونسون : وهنا يحدث اللقاء الذى أراده القدر . فرستم كان يرفض هذه المبارزة بادىء الأمـــر ، كما كان يربأ بنفسه عند التقائه بسهراب أن يبارزه لصغر جسمه ولشعوره بالتأثر أمام هذا الخصم الصغير قائلا فى نفسـه : « لو أن لى ولدا لكان مثله » . ومن ناحية أخرى تأثر سهراب عند لقائه برستم ، وكان يحس فيه روح الأبوة ، فكادت تمتنع نفسه عن هـــذه المبارزة ، وكان كل منهما يخشاها . وبالرغم من هذا الاحساس هل ستقع المبارزة ؟

بريزون : هل سيتعرف كل منهما على صاحبه ؟ وحتى اذا عرف كل منهما الآخر فتقـــاليد تلك الأيام كانت تفرض عليهما الاستمرار فى المبارزة . أليس كذلك يا ســيد جونسون ؟ فقـــد كانا بطلين لجيشين متعاديين ، وكان كل من الجيشين يتحدى الآخر . ولو فرضنا أن رستم قال فجأة : « هذا الشاب لابد أن يكون ولدى الذى أتمناه ! » . وقال سهراب: « انى أعرف انك أبى » . لو حدث هذا فهل كانت المبارزة تستمر ؟

جونسون : ربما كان يحدث ذلك فعلا لو كانت قصة رســـتم وسهراب كتبت فى قالب أسطورى ، الا أنها ألفت فى القـــرن التاسع عشر . وقد أتاح آرنولد الفرص

العديدة للابن والأب كى يتراجعا عن المبـــارزة ، ونشعر نحن أنه لو عرف أحدهما الآخــــر لتوقف القتـــال .

بريزون : دون مبالاة لوقائع التاريخ .

بيترسون : دون مبالاة بوقائع التاريخ لوجود عاطفة الأبوة ؛ فالعرف والتقاليد السائدة فى تلك الأيام تجعـــل العلاقة بين الأب وابنه من أقوى العلاقات الممكن تصورها . وكان من المحتمل أن يطلب رستم من ابنه أن يصحبه الى بيته ليشاركه السراء والضراء . والواقع أن هذا هو ما تمنى رستم : أن يكون له ولد يحمل عنه عبء المسئولية . وفى هذه الحالة يبطل مجال المبارزة . وأظن أننا قد أغفلنا أعظم موقف درامى فى الملحمة وهو صـــورة الجيشين وهما يرقبان بطليهما وقد توجه كل منهما للقاء غريمه فى مكان المبارزة المختار ـ التتار يهتزون فرحا وهم يرمقون بطلهم سهراب متقدما ، فى حين يظهر على الفرس الاكتئاب وهم يرون سهراب ، ولكن حينما يظهر رستم بعد ذلك تعود اليهم الشجاعة والأمل ويقف الجميع صامتين وكأن على رؤوسهم الطير . وتشرق الشمس على البطلين وتغرب وهما ما يزالان يتبارزان ، ثم يخيم عليهما الظلام وتعصف الرمال حولهما وهما يتضاربان . انه لمنظر مذهل يستحق أن يصور بريشة الرسام الفنان .

جونسون : هذا حقيقى يا آنسة بيترسون . الواقع أن الرمزية فى هذه الملحمة تلعب دورا خطيرا ، فلو أضفنا الى تخيلك صورة رستم وهو فى ملابسه السوداء فى

منظره الضخم ودرعه السوداء كأنه الموت يخيم على الجو كما سبق فى أول الملحمة . انه رجل حزين خاض الكثير من المعارك ومجرد ظهوره فى قلب المعركة يذكرنا بمن سفك دماءهم من الأبطال . ثم يخيم الضباب على المتبارزين ليشعرنا أنها هى اللحظة الحاسمة . ونعرف من الملحمة بعد ذلك أن رستم قد قضى حياته كلها فى سفك الدماء والعذاب. انها الصورة الحقيقية للمحارب المحترف.

بريزون : المحارب المحترف الذى تساوره الشكوك فجأة فى جدوى مهنته ، هل كان لديه شعور بأن عظمته الحربية ستكون سببا فى نكبته المريرة ؟

جونسون : ان هذا نفس شعورى ؛ فالغلام الذى يحاربه رستم الخفيف الحركة الصغير البنية لم يخض معركة حربية قبل ذلك ، ويعتقد رستم فى هذه الحالة أن انتصاره عليه سيكون سهلا ، فلرستم شهرته الحربية ، وهو ليس فى حاجة لاكتساب مزيد من الشهرة لنفسه ولجيشه ، اذن فلا داعى لاراقة دم هذا الشاب .

بيترسون : الحقيقة أنه ما كان لينتصر على غريمه لولا تلك الهفوة البسيطة . فحين تقابل البطلان للمبارزة لأول مرة فاجأ رستم سهراب بضربة عصا ، فكان أن سقطت منه تلك العصا وسقط هو معها على الرمال مما جعل سهراب يهزأ به قائلا : « لم يكن ثمة داع للقيام بهذه الفعلة ، فليس هذا هو السلاح اللائق بالمبارزة ! » . ووقوف سهراب بثبات وشهامة وعدم انتهازه الفرصة للفتك بغريمه كان

طعنة في كبرياء رستم الذى انتفض غاضبا وهو يرفع حربته ويقول بلا تفكير : « رستم .. ماذا دهاك ؟ ! » لقد زل لسانه مفصحا عن شخصيته ؛ وفى تلك اللحظة تحقق الشاب المسكين سهراب أنه يبارز أباه ، فصعق وفقد السيطرة على الموقف واذا بحربة أبيــــه تخترق قلبـــه وكانت الضربة القاضية .

بريزون : لقد لجأ آرنولد بالطبع الى هذه النهاية لأنه لم يكن من السهل عليه أن تكون الشجاعة والقوة وحدهما كافيتين لوضع حـــد للمبارزة ، فكان لزاما على القدر أن يلعب دوره . ويخيل الى أن هذا من لأساليب التراجيدية التى يلجأ اليها الشعراء أمثال ماثيو آرنولد . لقد كان محتما على القدر أن يتدخل لأنه من المقدر أن يقتل رستم ابنه سهراب مهما يكن الأمر . فمثل هذه الحادثة لا دخل فيها للقوة أو الشجاعة .

بيترسون : لم تكن هذه من بنات أفكار آرنولد وحده ، اذ سبقه اليها الفردوسى الشاعر الفارسى الذى عاش فى القرن الحادى عشر ضمن أحد أجزاء كتابه « سير الملوك » الذى يعتبر من أعظم القصص الذى كتبه شاعر من شعراء الفرس . والفرق بسيط بين الفردوسى وآرنولد ، فمثلا عندما يعرف رستم فى النهاية أن سهراب هو ابنه ، نجد أن الأسطورة الفارسية تجعل الأب يعرف ابنه عن طريق خاتم أو خرزة يلبسها سهراب حول عضده . وأعتقد أن مثل هذا التصوير غير ملائم عمليا ، وماثيو آرنولد

قدم فكرة مبتكرة اذ جعل الأب يعرف الابن عن طريق وشم على ذراعه .

جونسون : يجب ان نتذكر هنا أن آرنولد بكتابته هذه الملحمة كان يحاول أن ينتهج منهج التراجيديا اليونانية كما وضعه أرسطو فى كتاب الشعر حيث يترك للقدر أن يلعب دوره وأن يترك أثرا يدل عليه كما قال أرسطو . وقد تكون هذه العلامة خاتما فى الاصبع، ولكن أرسطو يفضل أن تكون العلامة فى الجسد كالوشم على كتف سهراب . وماثيو آرنولد يعتمد فى أصل روايته على الأسطورة الفارسية ، غير انه صاغها على الطريقة اليونانية التى تؤكد الدور الهام الذى يلعبه القدر فى تحويل مجرى الحوادث.

بريزون : ليس فى هذه الملحمة ما يشبه الحيل الفنية التى كانت تستخدم فى كتابة التراجيديا اليونانية . فرستم لم تحل عليه اللعنة . فما وقع له لم يكن عقابا على معصية . أم انه كذلك ؟ على كل حال يمكن القول بأن الفكرة اليونانية القديمة القائلة بأن الكبرياء تورث المأساة . . موجودة فى هذه القصيدة.

جونسون : هذا ما أراه يا سيد بريزون . ويخيل الى أن رستم اتهم بالكبرياء منذ تلك اللحظة التى أعلن فيها رغبته فى المبارزة متنكرا . وهذه الكبرياء هى التى منعته من اعلان شخصه ، فهو يقول فى هذا الصدد : « رستم لن يتنازل ويبارز مع نكرة ، بل سألاقيه متخفيا » . وأعتقد أنه بهذا قد أرضى غروره وكبرياءه .

بيترسون : اذا كانت الكبرياء تعتبر خطيئة فى العرف اليونانى، فهى أيضا كذلك فى المسيحية يا سيد جونسون .

بريزون : بالطبع هى كذلك . بل انها من الخطايا الكبرى ياآنسة بيترسون . ان ما أعنيه هو أنه فى التراجيديا اليونانية التى أخـــذنا عنها فكرتنا عن المقومات الجوهرية للتراجيديا الأدبية أن الكبرياء هى العنصر الأساسى الذى يميز التراجيديا من الأعمال الأدبية الأخرى التى تثير العطف والأسى . فالآلهة تتذرع بها لانزال الكوارث بالآدميين الضعفاء .

جونسون : يقال فى هذا الصدد ان الكبرياء يعقبها السقوط . ومن الحركة الرمزية التى حدثت أثنـاء المبـارزة أن سهراب يقطع الريشة الحمراء التى علت هامة رستم لدرجة أننا نشعر انها سقطت فى التراب . وبعد انتهاء المبارزة وقد عرف الأب ابنه والابن أباه ، يقول سهراب لرستم : « عذرا يا رستم » وعنـدئذ يحثو رستم التراب على رأسه وعلى درعه ، كأنما يصدر عن الشعور بالذنب .

بريزون : ربما فعل هذا كطقس من طقوس الحداد . لكن انت على صواب دون شك يا سيد جونسون . فثمـة شعور بالذنب . فرستم يشعر انه ربما كان يستطيع تفادى ما حدث لو انه كان أكثر انسانية وتواضعا .

بيترسون : ربما أراد سهراب أن يخفف من وقع الحادث على نفس رستم حينما قال فى آخر القصيدة : « انه القدر ، وحكم السماء وليس غيره » ولكنه كان يتمثل شبح الموت أمامه طوال الوقت لأنه قال : «لاتستطيع حتى الآن أن تعرف أنك المنتصر ، فنحن جميعا نسبح

فى البحر على متن موجة القدر العاتية وهى لم تقرر هل نسقط على هذا الجانب أم ذاك » . انها أبيات جميلة والقصيدة رائعة فى صورها وتشبيهاتها واستعاراتها . انها أدفأ وأغنى ألوانا من قصائد آرنولد الغنائية ، وان كان معظم القراء يفضلون شعره الغنائى لأنه أوفر ذاتية .

جونسون : وأعتقد يا آنسة بيترسون أن أجمل الأبيات فى هذه الملحمة هى ما قيل على لسان رستم وسهراب ، وهما يذكران الماضى وبراءة الطفولة والسعادة العائلية . ونشعر طوال الملحمة أن هذين المتبارزين قد ضلا الطريق ، فكل منهما كان يبحث عن الآخر . وحينما وجد كل منهما ضالته المنشودة ، وجد أنه من الصعب العودة الى بيت رستم أو الى بيت جد سهراب الذى وصف مرتين وصفا شائقا خلال الملحمة .

بريزون : على أية حال هذا لا يقدم أو يؤخر فى مثل هذه الملحمة الشعرية العظيمة يا سيد چونسون . ولكن ما رأيك فى هذه القصيدة من حيث هى تاريخ . هل هى تروى واقعة تاريخية صحيحة أم هى تعتمد على أساطير الفردوسى أو أساطير فارس وكأنها حقائق تاريخية؟

جونسون : لقد كانت تسود قصائد آرنولد الأولى مشكلة الشباب أو الفنان ؛ الشاب الذى ترعرع فى القرن التاسع عشر ، عصر الثورة الصناعية . وكان فى قرارة نفسه مقتنعا بأن هذا النوع من الشعر ليس أجود الشعر . لهذا غير موقفه من الشعر قبل كتابة هذه الملحمة قائلا ان الشعر يجب أن يبعث الحياة فى النفس .. يجب

أن يبعث معانى النبل .. يجب أن يغذى الروح .
وانى أعتبر أن هذه الملحمة ما هى الا محاولة من آرنولد لخلق بطولة عظيمة هادفا بها الى أن يغير من روح العصر الذى كتبت فيه . ومن ثم تعتبر الملحمة هامة من الناحية التاريخية ، وعلى أية حال فانها مثال على الاتجاه الذى نقراه اليوم فى أدبنا المعاصر ، اتجاه الأديب الى أسطورة من الأساطير واتخاذها موضوعا لأدبه حتى يضفى الجلال والقيمة على المواقف العادية التى تصادفنا كل يوم .

بيترسون : ويخيل الى ان من الأمور التى تحققها القصيدة ، تأكيد شجاعة الانسان فى المعركة ــ رغم مقتنا الشديد للمعارك ــ فى الوقت الذى تهمل فيه البطولات الفردية على كثرة ما يستنزف منها ويراق . فمثلا نطالع فى جرائد اليوم أن عددا من السفن والطائرات قد دمر . وكان الأمر كله يقاس بعدد ما دمر من بوارج وطائرات . فلا ذكر لبطولة الانسان . كما نجد أن الشجاعة الفردية التى أظهرها رجال كثيرون ابان الحروب لا ذكر لها . أما فى هذه الملحمة فبطولة الانسان تتجسد فى صورة حية متحركة تتمثل فى شخصين على حين أن الجيوش على الجانبين فى موقف المتفرجين . فهنا تتجلى الفروسية عنصرا أساسيا من عناصر الحرب ، كما كانت فى الماضى ، وكما هى الآن عند الملايين من الأفراد المتحاربين .

بريزون : فى غالب الظن أنها لم تختف من الحروب كما تقولين يا آنسة بيترسون ، ولكنها اذا كانت قد اختفت فليس سبب هذا أن رجال اليوم أقل شجاعة ،

أو أن الشرف لا يعنى كثيرا بالنسبة اليهم . ولكن لأنه من المستحيل الآن أن نجد بطلين يمثل كل منهما جيشا بأكمله يخرجان للحرب فى قلب الصحراء الرملية لانهاء الخلاف بين الجيشين . ان مثل هذا لا يحدث فى عصرنا الحديث . فقديما كان يتوافر العنصر الرياضى فى الحرب ، وهذا العنصر الرياضى يستحيل على الجيوش المتحاربة الآن .

جونسون : على أية حال لقد كان سهراب جنديا محترفا بحكم مهنته محاربا من أجل التتار . أما فى المعارك الحربية التى تحدث فى عصرنا فهنالك غاية سامية يجب أن نعترف بها دائما ، وهى الوفاء . وهذا الوفاء ليس مجرد وفاء المحارب لجيشه ووفاء الجيش له ، وانما هو أيضا وفاء الأب لابنه . ففى هذه القصيدة يصدر الأب والابن عـــن أسمى ولاء ، ولاء البنوة بمعناها القدسى القديم .

بريزون : الا يؤدى هذا بنا ياسيد جونسون الى شىء أجل بكثير ، ألا وهو معنى هذه العلاقة بالنسبة لآرنولد نفسه . ان آرنولد كان رجلا يعيش فى الظاهر حياة تقليدية مفتشا للمدارس ويظهر بمظهر الفيكتوريين تحفظا رغم أنه لم يكن من المفكرين الجامدين . وأن كان يظهر بمظهر المفكر الجامد فان ذلك كان مجرد مظهر ليس الا . لقد كان يكمن تحت هذا الجمود شعور وعواطف ورقة ، رغم هـــذا المظهر الجامد المتحجر ؛ لقد كان خلف تلك الشخصية الصلبة شاعر عظيم . والآن ما الذى كانت تعنيه هذه الملحمة بالنسبة للمؤلف نفسه ؟

جونسون : ان لى نظرة فى هذا الصدد يا سيد بريزون . ان توماس آرنولد والد ماثيو آرنولد كان من أعظم رجال العصر الفيكتورى ، فقد كان الناظر الكبير لمدرسة « راجبى » وقد أدت نظرياته التعليمية الى حركة اصلاح كبيرة فى المدارس الثانوية . وكان أيضا من قادة النقاد الانجيليين والوعظيين . وكانت له مكانته العظيمة ونفوذه القوى . وانى أومن ايمانا وثيقا أن العلاقة بين رستم وسهراب فى هذه الملحمة تصور وفاء آرنولد لذكرى والده العتيد .

بريزون : نعم وفاء للذكرى . ولكن هنالك ايضا شيئا من شعور الابن الذى يرى فى نفسه قوة عظيمة ، ويرى فى أبيه قوة عظيمة . انها حالة لا بد معها من الصراع .

جونسون : أعتقد أن هذا حق دون شك . والدليل على ذلك أن ماثيو آرنولد لم يكتب مرثيته لأبيه بعنوان « مصلى راجبى » الا بعد سنين عديدة من موت أبيه . والسبب فى ذلك هو أنه كان هنالك نزاع قائم بين شخصيتين قويتين مختلفتين .

بيترسون : وأعتقد أيضا أن هذه القصيدة تصور أيضا نظرية آرنولد فى الأخلاق . فلقد كان سلوك الناس فى الحياة يهمه أكثر مما يهمه أى امر آخر . كان يعيش فىعصر تزايلت فيه قوة الأديان السماوية على نحو ما ، وأعتقد أنه قد زاغت عقيدته . ولهذا فقد تشبث بالمقاييس الأخلاقية فى السلوك . وقال فى ذلك الصدد ان لم يكن للانسان حياة أخرى ، اذن فليرتفع بمستوى حياته على الأرض . وكان هذا

شعاره دائما ، ويردد ماثيو آرنولد فى قصائده جميعها الدعوة الى الاعتماد على النفس وعلى قوة الروح المعنوية وجديتها فى مجابهة العالم أجمع . وهذه الملحمة فى رأيى تصوير لتلك النظرية .

بريزون : أشاركك فى هذا الاعتقاد يا آنسة بيترسون ، وانه من الطريف أن نرى ان بعض الناس يعتقدون أن مثل هذا الصراع بدأ بالأمس فقط ، وها نحن أولاء نراه فى ماثيو آرنولد الذى عاش منذ أكثر من مائة عام . ومن المحتمل أن مثل هذا الصراع قد عذب الكثير من الأرواح البشرية منذ آلاف السنين .

جونسون : انه لنصر كبير لماثيو آرنولد الذى تقول عنه انه شاعر عظيم ، أنه استطاع أن يعرض هـذا الموقف فى صورة ملحمة لسهراب ورستم ، وهى تعتبر فى الحقيقة تصويرا ملحميا ملهما للنزاع بين جيشين متصارعين .

بريزون : وهذه القصيدة ــ شأن كل القصائد العظيمة ــ يمكن أن يقرأها من ينشد الجمال والدراما المثيرة ؛ حتى وان عزف عن التنقيب الدقيق عن معانيها العميقة .

الوهم العظيم

The Great Illusion

لسير نورمان آنجل

Angell

سير نورمان آنجل

سير نورمان رالف آنجل لين – (١٨٧٤ –)

كاتب بريطانى يدعو الى العالمية والسلام على أساس اقتصادى . ولد فى « هولبيتش » من أب قاض . وسافر صبيا وشابا فى أوروبا وأمريكا . لم يتزوج . عمل فى الصحافة الأمريكية والفرنسية والانجليزية . وكان همه تحريك الرأى العام من أجل السلام . كان نائبا عماليا عن شمال « برادفورد » من سنة ١٩٢٩ الى سنة ١٩٣١ . وفى سنة ١٩٣١ نصب فارسا ، وفى سنة ١٩٣٣ نال جائزة نوبل بالاشتراك مع آرثر هندرسن . تولى مناصب صحفية وعمل فى بعض المنظمات السياسية الداعية الى السلام . واتصل بالرئيس ولسن وعمل فى عصبة الأمم . وحاضر عشر سنوات فى أمريكا من سنة ١٩٤٠ الى سنة ١٩٥١ .

شهر بكتابه « الوهم الكبير » سنة ١٩١٠ ، وهو الصورة المنقحة لكتاب نشره سنة ١٩٠٩ بعنوان : « خداع البصر فى أوروبا » . وذاع الكتاب بشكل عالمى ، فقرىء فى أوروبا وآسيا وأمريكا .

له كتب كثيرة كلها حول الحرب أو الاقتصاد ، منها « الحرب والحقائق الأساسية » سنة ١٩١٣ ،

« غابات الحرية » سنة ١٩١٨ ، «ثمار النصر » سنة ١٩٢١ ، « أيتحتم على انجلترا أن تسلك طريق موسكو ؟ » سنة ١٩٢٦ ، « لعبة النقود » سنة ١٩٢٨ ، « القتلة غير المرئيين » سنة ١٩٣٢ . « أى نوع من السلام هذا ؟ » سنة ١٩٤١ . وفى سنة ١٩٥٠ نشر سيرته الذاتية . لا يزال يعيش فى شمال اسكس فى جزيرة صغيرة ويقود يخته فى بحر الشمال .

تعريف بالكتاب والمؤلف

أبوه قاض يعمل للعدالة ، وحياته مقسمة منذ طفولته على شتى بقاع الأرض . أفنعجب بعد ذلك أن يدعو سير نورمان آنجل طوال حياته للسلام العالمى . طفولته فى انجلترا ، ومراهقته فى فرنسا حيث درس فى الليسيه ، وصباه فى سويسرا ، يدرس فى جامعة جنيف ، وفجر شبابه فى غرب أمريكا وفى المكسيك يمارس حياة رعاة البقر بكل شهامتها وفروسيتها وشجاعتها . ويعمل فى الصحف الأمريكية والفرنسية والانجليزية ، وعشر سنوات مع لورد نورثكليف ، وثلاث سنوات يرأس تحرير مجلة الشئون الخارجية . وفى نفس هذه السنوات الثلاث ١٩٢٨ — ١٩٣١ يمارس حياة نائب فى البرلمان : نائب عمالى عن شمال برادفورد . وفى سنة ١٩٣١ ينصب فارسا ويحمل لقب « سير » . وتعرض عليه وظائف كبرى فى الدولة ولكنه يأبى لأن رسالة كبرى تشغل حياته الطويلة وتدعوه الى الرحلات ؛ والوظائف أضيق من أن تتسع لهذه الدعوة العريضة . كتب فى السابعة والسبعين من عمره (سنة ١٩٥١) سيرته الذاتية ، وكان لعشر سنوات مضت يقضى الخريف والشتاء محاضرا فى أمريكا والربيع والصيف مستريحا فى انجلترا فى جزيرة صغيرة شمال اسكس حيث يعيش الآن يتسلى بقيادة يخت فى بحر الشمال ، وفيها يقول : « لقد ضعفت صحتى والظاهر أنها آخر مرة أرى فيها أمريكا . ان السفر والمحاضرات والمناقشات قد أجهدتنى . » ومع ذلك فلقد أحب أمريكا لأنه قضى فيها جزءا كبيرا من حياته .

فيم كان هذا التجوال الكثير ؟ فى سبيل قضية ضخمة لا يمكن لفرد وحده أن يصل فيها الى نتائج . ان لآنجل رأيا فى السلام ، ولكن له سعيا حثيثا دائبا فى سبيله . ويقول مؤرخه انه لو تحقق السلام العالمى يوما ، فلابد أن تذكر جهود آنجل فى هذا السبيل بكل فخار واحترام .

لقد رحل وكتب وناقش وعاش ، ولم يكد يشغل بأى شىء الا بالسلام العالمى ، ولئن يكن قد بنى دعوته على فكرة اقتصادية لم يستطع أن يقنع الكثيرين بها ، فلقد أصاب رغم هذا نجاحا فى دعوته . لقد كان يدعو الى نوع من الاتحاد الدولى فى سبيل منع الحرب ، وقابل الرئيس ولسن وناقشه فى موضوع السلام ، وكان عضوا فى اللجان التنفيذية فى عصبة الأمم . وعاش ليرى هيئة الأمم . ولكن يجب أن نذكر أنه بدأ دعوته حتى قبل الحرب العالمية الأولى أيام لم تكن فكرة عصبة الأمم تخطر على بال . وهو مؤمن أننا ان كنا لم نصل بعد الى ما نريد فى موضوع السلام ، فاننا ولا شك سائرون نحو الهدف بخطى تزداد وضوحا .

لقد ألف كتابه « الوهم الكبير » سنة ١٩١٠ على أساس كتاب « خداع البصر فى أوروبا » سنة ١٩٠٩ . ورفع الكتاب من ذكره حتى لم يعد مثقف أو شبه مثقف يعرف اللغة الانجليزية لم يقرأ هذا الكتاب فى تلك الأيام . وترجم الكتاب وقرأه أكثر وأكثر عددا. وعلى أساس هذا الكتاب وكتب أخرى ومجهوداته فى سبيل هذه القضية لقب بالفارس ، ونال جائزة نوبل بالمشاركة سنة ١٩٣٣ .

ان آنجل يؤمن بالحرية أساسا للسلام ، كما يؤمن بانفصال الاقتصاد عن الحروب . ان الحرب فى نظره لا تحل مشكلات الاقتصاد ، ولكنها — وهذا هو الأهم — لا يمكن أن تكون وسيلة كسب اقتصادى . لقد درس الاقتصاد ، وكان ميالا الى تبسيط الأمور للقراء والمستمعين حتى انه ألف لعبة بالبطاقات تسهل فهم

تعقيدات التداول النقدى الدولى ، كذلك كتب كتبا شعبية عن الاقتصاد وعن النقد . يريد بكل هذا أن يقرب هذه الموضوعات الصعبة الى ذهن المثقفين عامة ليستطيع بعد ذلك أن يقـــول ان الحرب لا شأن لها بالاقتصاد . وكان يعادى كل من يدعـــو الى الحرب ؛ او يؤمن بأن الحرب وسيلة من وسائل حل المشكلات السياسية أو الاقتصادية ؛ لذلك كره الفاشية وحاربها ، ورأس (بالمناوبة) جمعية دولية تهاجم الحرب وتعمل ضد الفاشية .

ولم تدر مؤلفاته ، على كثرتها ، الا حول هذين الموضوعين : الحرب والاقتصاد . بدأها بكتاب « الوطنية فى ظل ثلاث رايات » سنة ١٩٠٣ ، وتوقف سنة ١٩٥٨ عند كتاب « الدفاع ودور متكلمى الانجليزية » . خمسة وخمسين عاما لم يهدأ من الكتابة فى سبيل السلام العالمى ؛ ومن الموضوعات التى طرقها نذكر أمثـــلة لأن حصرها طويل وبعضها يؤكد لنا اهتمام الرجل بقضية شغلت كل حياته . لقد ألف : « الفوضى الاقتصادية ومعاهدة الســـلام » سنة ١٩١٩ ؛ ومن الاهتمام بالاقتصاد اهتم بالبطالة والف « هل يمكن للحكومات أن تعالج البطالة ؟ » سنة ١٩٣١ . كذلك ألف حول موضوعات الفوضى والضياع « من أجل ماذا نحارب » سنة ١٩٣٩، « من الفوضى الى النظام » سنة ١٩٢٢ ، « الضياع فى أمريكا » سنة ١٩٣٢ ؛ « أى نوع من السلام هذا ؟ » سنة ١٩٤١ .

لقد قرأ فى شبابه مقال چون ستيوارت مل عن الحرية ، فأثر المقال والكاتب كلاهما فى حياته آثارا بالغة . يقول الناقد آلفن چونسون انه يقرن دائما بين ستيوارت مل وبين آنجل ، ويعدهما احكم المفكرين واشجع المتحدثين بالانجليزية واوفاهم امانة وصدقا، انهما كأب وابن فى انسانيتهما اللانهائية ، وفى اخلاصهما للمنطق السليم . ولكن آنجل أكثر حركة ، وكأنما اتشح « بالوهم الكبير »

وراح يجوب العالم متزعما أقوى حركة سلام دولى وتفهم عالمى فى زماننا .

ويمتاز الوهم الكبير بأن صاحبه يحشد الحجج فيه على أن الحروب لا تحل مشكلات الاقتصاد ، وأنها لا تؤدى الى كسب اقتصادى ، بل ان الفائز فيها كثيرا ما يكون هو الخاسر . ويضرب المثل بتغلب ألمانيا بسمارك على فرنسا ، وكيف أن فرنسا بعد الانهزام كانت هى الأكثر ازدهارا اقتصاديا من ألمانيا بعد النصر . ان الأمم اذا أرادت مصلحتها الاقتصادية يجب أن تبتعد عن وسيلة الحرب .

وبصرف النظر عن عدم موافقتنا على بعض آراء آنجل الهامة، فان دعوته الحارة للسلام الدولى والحرية العالمية قد صبغت بأسلوب مخلص بسيط يشع بحرارة ايمان الرجل الذى كرس حياته كلها من أجل دعوة انسانية واحدة تسرى الينا من خلال كلماته الأمينة فتجعلنا نتحمس لدعوته ، لا لأنها دعوة حرية بتحمس كل فرد فحسب ، ولكن لأنه فعلا يلهب حماستنا بايمانه العميق . انه منذ سنة ١٩٠٩ يبشر بالعالمية ويرسم للناس صورة عن اتحاد دولى قبل عصبة الأمم وهيئة الأمم تكون مهمته الأولى القضاء على الحرب كوسيلة لحل أية مشكلة . انه يدعو الى اتحاد يصون الأمن والقانون والنظام ويمنع ، بما لديه من قوة الاتحاد ومن شتى وسائل الأمم المنضوية تحت لوائه ، قيام اية حرب فى أية بقعة من العالم . اوليس من سخرية القدر أن يحيا آنجل ليرى حربين عالميتين مدمرتين ، ولم يتعظ الانسان بعد ، فما زالت الحروب الصغيرة هنا وهناك تلطخ وجه المعمورة وتزرى بالانسان .

ان آنجل مؤمن وأسلوبه مخلص وكتابه رائد فيما تصور من سبل ووسائل فى طريق الانسانية الوعر نحو الامتناع عن الحروب. لذلك ما كان يمكن كما يقول الأستاذ بريزون فى الحوار هنا أن

يختتم كلام عن كتب تتحدث عن الحرب والسلام دون وقفة أمام كتاب آنجل الأشهر « لوهم العظيم » . هذا الكتاب الذى ذاع ذيوعا لم تحظ به الا قلة نادرة من الكتب ؛ فلقد طبع أكثر من خمس وعشرين مرة ، وترجم الى خمس عشرة لغة وقرىء فى أحد عشر بلدا على الأقل .

سهير القلماوى

الحـــوار

سير كارل برندسون (١) جيمس ك . فيبلمان (٢) ليمان بريزون

بريزون : لا أعتقد أنه يمكن لفرد أن يتناول الكتب التى تناقش مسائل الحــــرب والسلام دون أن يتعرض لكتاب « الوهم العظيم » . وفى شبابى كان هذا هو الكتاب الوحيد الذى أثار جدلا حول هذا الموضوع أكثر من أى كتاب آخر . ولقد أصبت بخيبة أمل حين اتضح لى أن هذا الكتاب قد نفدت طبعاته ، ومن الغريب هنا أن كتابا كهذا كان منذ خمسين عاما فقط محور الحديث فى كل مكان أصبح الآن من العسير وجوده فى أية مكتبة . هل مرد ذلك الى أن الكتاب قد فقد أهميته لأن الناس قد نســـوا مضمونه ، وأن نورمان آنجل ، الذى بلغ الثمانين من العمر قـــد ذهبت مجهودات عمـــره أدراج الرياح ؟

برندسون : والكتاب لم تنفذ طبعاته فحسب ، بل لقد وجدت من العسير جدا الحصول على نسخة منه فى مكتبة نيويورك العامة ، فهناك نسختان منه فقط .

بريزون : وقديمتان دون شك يا سيد كارل . .

برندسون : على كل ليستا بالحالة التى كانتا عليها من قبل . أعتقد أن هذا الكتاب يعتبر أحد الكتب الهامة التى

---

(١) Sir Carl Berendsen السفير السابق لنيوزلندا فى الولايات المتحدة .

(٢) James K. Feibleman أستاذ الفلسفة بجامعة تولين .

أثارت الفكر فى هذا القرن ، وإذا كانت قيمته ترجع أصلا الى تلك المناقشات التى أثارها أكثر مما ترجع الى المادة التى يحتويها ، فذلك لا يغض من حقيقة كونه أعظم عمل مؤثر ومقنع فى وقتنا هذا ، كما انه يعتبر من أقوى العوامل التى وجهت الانسان ليبحث عن أسباب الحرب وكيف يتيسر له تحقيق العدالة والانسانية والحكمة دون اللجوء الى الصراع المتكرر.

بريزون : يبدو لى انك تتجنب القول ياسير كارل بأن هـــذا الكتاب يعتبر أقوى حجة موضوعية ضد الحرب .

برندسون : أنا لا أعتقد أن جانب الاقناع فى هذا الكتاب يعدل جانب ما أثاره من مناقشات وخلافات فى الرأى.

فيبلمان : أنا أعتقد ياســير كارل أن هـــذا الكتاب عظيم الى درجة تثير العجب ، وأقـــول تثير العجب لأن الاستدلال متسق جـــدا يؤدى بك مباشرة من مقدمات زائفة الى نتائج صحيحة .

بريزون : وأنت كأستاذ للفلسفة يا أستاذ فيبلمان ، هل من الجائز اتباع مثل هذا المنهج فى المنطق ؟

فيبلمان : نعم جائز . فأنت تستطيع الانتقال من المقدمات الفاسدة الى نتائج صحيحة ، ولكنك لا تستطيع أن تنتقل من مقدمات صحيحة الى نتائج فاسدة . هذه هى نظرية المنطق كاملة . والعجيب فى أمر كتاب آنجل أن نظريته غير سليمة ، فهو يقول بأن الاقتصاد مستقل عن السياسة ، والحرب أداة من أدوات السياسة ، اذن فالحرب لا يمكن أن تتمخض عن فائدة اقتصـــادية . وتلك نظرية باطلة بطبيعة الحال .

بريزون : حلمك .. انتظر دقيقة ، لا تعجبنى كلمة « بطبيعة الحال » هذه . هل تلك النظرية زائفة حقا ؟ انى أعاود قراءة « الوهم العظيم » فى شىء من الدهشة، فأجد أن قدرا كبيرا من حججـــه يعارض المسلمة الشائعة القائلة بأنك اذا كسبت الحـــرب كسبت المال ، كأن الأمر بهذه البساطة ، وهذه فيما أعتقد من مسلمات رجل الشارع ، فهى اذن ليس لهـــا أساس وطيد .

فيبلمان : صحيح أنها غير ثابتة علميا ، ولكن لنتساءل : هل حدث أن الحروب أدت الى كسب اقتصادى على المدى الطويل ؟ هذا هو سؤال آنجل الحقيقى .

برندسون : أفضل أن أحلل الموضوع أكثر من ذلك قبل أن نصل الى هذه النقطة ، فما الذى كان يفترضـــه آنجل ؟ لنأخذ أولا الشىء الذى لم يفترضه ، فانه لم يقل ان الحرب قد أصبحت مستحيلة من الناحية الاقتصادية .

بريزون : نعم .. انه لم يقل ذلك . وقد حاول طوال خمسين عاما أن يقنع الناس بأنه لم يقل هذا القول .

فيبلمان : ان آنجل لم يكن مجرد داعية سلام على الاطلاق .

برندسون : ... على وجه الاطلاق ... فقد أنكر فكرة المهادنة ، كما أنكر أن الرأسمالية هى الحل ، ولكننى أتذكر جيـــدا حينما ذهبت الى الحـــرب فى أغسطس سنة ١٩١٤ كيف كان القول الشائع وقتذاك : « ان الحرب لا يمكن أن تستمر الى ما بعد عيد الميلاد بسبب الصعوبات المالية التى تترتب على الاستمرار فى الحرب .

بريزون : كان المفروض أن آنجل قد أثبت ذلك الرأى .

برندسون : كلا . لم يكن صاحب هذا الرأى قط .

بريزون : بل انه حينما قرر آنجل أن الحرب لا تعود بالكسب المادى ، فانه قال رغم ذلك انى أتوقع من الناس أن يندفعوا الى الحرب فى القريب العاجل مفترضا أنهم سيذهبون فعلا .

نيبلمان : حقيقـــة لقد قال انه ليس من الممـكن أن يكسب الانسان المال عن طريق الحرب ، ولكنه حينما قال ذلك كان يفترض أن النظام الرأسمالى سيسود فى جميع البلاد المتحاربة ، وأنه يستحيل الاستحواذ على التجارة بقوة السلاح ، وهذا صحيح اذا سادت الرأسمالية ، ولكن هنالك بعض البلاد التى لايسودها النظام الرأسمالى مثل الاتحاد السوفيتى . وأنى لأتساءل : هل يمكن أن تقول لاتافيا انه لا يمكن بالقـــوة الاستحواذ على التجـارة أو المنافـــع الاقتصادية ؟

برندسون : لست أدرى الى أى حد تصدق هذه النظرية ــ أعنى النظرية القائلة بأنه لا سبيل الى كسب المنافـــع الاقتصادية عن طريق الحرب . ان فكرة آنجل هى أن المنتصر سيضطر الى ترك المنهزم وفى حوزته الحياة والثروة . ولكن الأحداث الأخيرة أثبتت بما لايدع مجـــالا للشك أن هناك منفعة تجنى مـــن الحروب . . فهتلر وستالين أثبتا ذلك عندما لجآ الى ابادة الملايين ، واستعباد وسجن الملايين الأخرى ، والى الاستيلاء بالقوة على الممتلكات العامة والخاصة ،

ولا سيما السلع الرئيسية . وهذا دون شك يعد كسبا اقتصاديا .

بريزون : هذا حقيقى يا سير كارل . ولكن من الحق أيضا أنه بعد مشاركتنا مرتين فى غزو ألمانيا أنفقنا أموالا طائلة لاعادة تمويل ألمانيا واطعام أهلها واعادة بناء مادمر منها . ولعل هذا هو المسلك الذى كان يتوقعه نورمان آنجل من الأمم .

برندسون : لا أظن أن آنجل قد ذهب فى تفكيره الى هذا المدى .

فيبلمان : ولا أنا أيضا .

بريزون : هل تظنون أن آنجل اعتقد أن الحلفاء كان لزاما عليهم أن يقيلوا الشعوب من عثراتها ويبعثوا فيها النشاط الاقتصادى ، وانتم تتذكرون المثل الكبير الذى قدمه آنجل حين قال انه حينما نجح بسمارك فى تدمير فرنسا الحديثة وانتظر بضع سنوات ، فان فرنسا أصبحت أحسن حالا من ألمانيا ، وهذا رغم أن ألمانيا هى التى كسبت الحرب .

برندسون : ولكن لا تنسوا أن ألمانيا حصلت على تعويض كبير .

بريزون : ولكن فى رأى آنجل أن ألمانيا خسرت هذه الحرب .

فيبلمان : أليست هنالك نظرية خفية هنا تقول بأن الاقتصاد شىء جميل ، فى حين أن السياسة شىء قبيح ؛ فالسياسة هى الوغد فى هذا الموقف . ان آنجل يفترض على ما أظن وجود التجارة الحرة ، وبالتالى يفترض وجود النظام الرأسمالى ، وكلاهما يعتبره الكثير من شعوب الغرب أمرا جميلا . ولكن ليس معنى ذلك أنه أمر لابد منه كما تخيل آنجل ، فالسياسة عنده هى مجرد تدخل فى الاقتصاد .

واذا ترك الاقتصاد على حدة فى عالم مسالم ، فان الاقتصاد يمكنه أن يحل جميع المشكلات . وانى احسب أنه أخطأ هنا للمرة الثانية .

بريزون : هل تعتقد أنه ذهب الى هذا الحد يا سيد فيبلمان ؟

فيبلمان : هنالك نقطتان لآنجل أود أن أدافع عن احداهما . هذه النقطة هى الأمن الجماعى . فأعتقد أن آنجل هو اول من نادى بأن أهم ضمان ضد العدوان هو الأمن الجماعى ، لا المهادنة ، هو الرغبة فى التفاهم وتسوية المشكلات بطريقة عقلية سليمة على مستوى دولى وبطريقة سلمية . ومع أن أفكار آنجل لم يكتب لها النجاح الكامل، فانها قد نجحت على نحو ما، ألم تكن عصبة الأمم ثم من بعدها هيئة الأمم على نحو ما نتيجة منطقية لما كتب ؟ ولا تنس أن كتابه قد ترجم الى عشرين لغة وكل انسان له اية مكانة فى عصره قد قرأكتابه . وقد عاش معاصروه الى أن قامت عصبة الأمم ، ومن بعدها هيئة الأمم اللتان تعتبران محاولتين فكريتين من ناحية الأمم الراغبة فى السلام لتؤمن نفسها ضد المعتدى ، لا بطريقة التهاون بل بالتسلح ، وتوطيد النفس على أنها كما قالت : « سندافع عن أنفسنا ان هوجمنا ، وسنعاقب المعتدين » .

برندسون : أوافقك كل الموافقة يا سيد فيبلمان ، وأعتقد أن الدرس الأساسى الذى نتعلمه من آنجل هو ضرورة وجود الأمن الجماعى ، وان كان آنجل نفسه لم يقصد أن يكون وجود الأمن الجماعى هو الدرس الأساسى المستفاد من كتابه .

فيلمان : لا ، انه لم يقصد الى ذلك .

برندسون : ولكنه الدرس المهم الذى يجب أن نستخلصه من الكتاب . ومن ضمن ما قال ، وقد قال الكثير ، ان الحرب غير مجدية ، وانه لو استطاع الانسان أن يقنع الناس بهذه الحقيقة فلا تقع الحروب . وهذا فى رأيى غير صحيح بتاتا .

بريزون : لقد قضى آنجل حياته محاولا أن يبين للناس بعض الآراء الأساسية ولو أنه فى تاريخ حياته الذى كتبه بقلمه والذى يعتبر من الكتب الرائعة يعترف بأنه فشل فى اقناع الناس بنظريته ولم يعلم السبب فى هذا الفشل ولكنه فشل على أية حال . لقد فشل فى اقناع الناس بأن العقل هو أهم شىء ، فهل كان هذا هو سبب فشله ؟

برندسون : لا أعتقد أن هذا هو سبب فشله ، وانما سبب فشله فى رأيى هو أنه لم ير الأشياء بوضوح كاف، لقد تمنى لو استطاع أن يقنع الناس بأن الحرب غير مجدية مفترضا أن الاعتبارات الاقتصادية والرغبة فى الربح هما السبب الأول للحرب ، وهو فى هذا مخطىء ؛ لأن السبب الأول للحرب ليس الرغبة فى الحصول على الربح الاقتصادى ، بل هو النزعة القديمة المتأصلة فى نفس الانسان .. أعنى الرغبة فى السيطرة واشتهاء التسلط .

فيلمان : ألا توافقنى يا سير كارل على أن آنجل لم يخسر قضيته تماما ، انه يخيل الى أن نورمان آنجل هو قديس العقل العملى اذا جازت هذه التسمية . فمنبع قوته الدافعة افتراض أنه اذا كان الأفراد

يسوون مشكلاتهم أحيانا بالعاطفة وأحيانا بالعقل ، فانهم أحيانا يستعملون القوة . أما الأمم فانها لاتكاد تصدر فى تصرفاتها عن غير الدوافع العاطفية لتسوية مشكلاتها . وهذا يؤدى الى الحرب . ان آنجل يريد أن يصل من العقل الفردى أى من الطريقة التى يحل بها الأفراد مشكلاتهم عن طريق العقل ، أى عن طريق السلم الى الجماعة أو الأمة أو التصرفات الدولية . ان آنجل ، وهو قديس العقل العملى ، قد كرس للعقل حياته ، وما دامت لدينا هيئة الأمم المتحدة فلا نستطيع أن نقول بحق ان الرجل قد فشل . انى لا أعتقد أن حياة نورمان آنجل قد ذهبت هباء بددا .

برندسون : أبدا فما أبعد حياته عن الفشل . أما الفاشل فهو طريقته الخاصة فى علاج المشكلة . فانه يفترض شيئا من المستحيل افتراضه وهو أن الاعتبارات الاقتصادية هى السبب الرئيسى للحرب .

بريزون : انك لا توافق على هذه النظرية — وهى أن الاعتبارات الاقتصادية هى السبب الرئيسى للحرب — وذلك لسببين ، أليس كذلك ؟ السبب الأول هو أنها غير حقيقية ، والثانى أنها حتى لو كانت حقيقية فهى ليست حاسمة الأثر .

برندسون : لنفترض للحظات أن الحروب غير مجدية ، وأنه لو أقنعت الناس والعالم لامتنع قيام الحرب . هذا فى رأيى خارج الموضوع الأساسى ، فلننظر الى الأحوال السياسية فى العالم اليوم ، ولنتأملها كما كانت منذ بضع سنوات ، فلقد قامت حربان

عظيمتان ولم يكن السبب الأول فى اشتعالهما — فى رأيى — هو الدوافع الاقتصادية ، وان كان من الطبيعى الا نتجاهل العامل الاقتصـــادى . فان هاتين الحربين قامتا أساسا بسبب الرغبـة فى السيطرة ؛ رغبة هتلر وعصابته فى السيطرة ، رغبة الألمان واليابانيين فى السيطرة .

والحـــرب القائمة اليوم اذا حق لنا أن نسميهـا حربا — لا قدر الله — فسببها الرغبة فى السيطرة .

فيبلمان : الا يحق لنا أن نقول يا سير كارل اننا اذا نظرنا الى هذه المشكلة نظرة أعم وأشمل وجدنا أنه ما دامت الحكومة منظمة من المنظمات ، فان النظرة السائدة بين علماء الاجتماع المحـــدثين تؤيد فكرة نورمان آنجل ، فهم يقولون ان من طبيعة المنظمات الاجتماعية ومنها الحكومات أنها تستهدف فى المحل الأول اطالة بقائها الى أقصى أمد ممكن ، أو بعبارة أخرى أن الهدف الأول لأية منظمة هو أن تظل منظمة كمـــا هى — أى انها تصبح غاية فى ذاتها . أما هدفها الثانى فهو تحقيق أغراض المنظمة . ولكن لما كان الهدف الرئيسى للحكومة ينبغى أن يكون الحكم الصــــالح وليس مجرد الاستمرار فى الحكم فانه يمكن القول بأنها قد أصيبت بالانحراف فصارت تخدم نفسها دون الغرض الأساسى الذى كان ينبغى أن تتجـه الى تحقيقه .

بريزون : وهــــذا يؤدى بالحكومة الى الالتجاء الى ملاذها القديم . وهو أن قوة الحكومة اذا اختلت فى الداخل فما علينا الا أن نتذكر العدو فى الخارج ، ونستطيع

بالتالى أن نبعد أنظار المواطنين عن مساوئنا ونوجهها الى العدو فى الخارج ، وهكذا تستمر الحكومة فى الحكم .

فيلمان : وأحسب أن هذا قد تكون له نتائج طيبة أيضا ، فمن الملاحظ غالبا أن الشعب يصبح يدا واحدة فى حالة الحرب . فالأمريكيون مثلا يكونون يدا واحدة عند انشغالهم فى حرب خارجية فتظهر حسناتهم واضحة ، وما ان يحل السلام حتى يبدأ كل منهم بتصيد الأخطاء للآخر . وانى أتساءل كيف نستطيع أن نحقق فى وقت السلم نفس المحبة والتعاون والصداقة التى تتوافر فى وقت الحرب ؟

برندسون : وهذا يقودنى الى نقطة أخرى ، فأنا أعتقد أن آنجل قد تجاهل هذه الحقيقة الى حد بعيد ، ذلك أنه بينما لا يتم السلام الا بين طرفين ، فان شخصا واحدا يستطيع أن يشعل الحرب ، وعلى هذا يستطيع شخص واحد أن يقترف جريمة سرقة مسلحة ، وهى مسألة تتطلب المقاومة بالقوة ، فالدفاع عن النفس يعتبر من غير شك أنبل أعمال الانسان وأشدها ضرورة . وان الدفاع عن النفس هو الذى قاد الى الحروب الكبرى فى وقتنا الحاضر، بل ربما أدى هذا الدفاع عن النفس الى حرب عالمية ثالثة .

بريزون : لا أظن أن آنجل قد غابت عنه هذه الحقيقة كلية ، فهو يقول فى الطبعة المعدلة من كتابه « الوهم العظيم » انه قد تأكد من أن الدفاع عن النفس غالبا ما يعتبر ضرورة وهو لا يقر أبدا بأنه يؤمن بهذه الضرورة .

برندسون : أوافقك تماما .

بريزون : فهو يرى انه من الممكن اقناع المعتدى بأنه لن يكسب شيئا حتى ولو كسب الحرب .

برندسون : وهذا يقودنى الى تلك المآخذ التى أعيبها على آنجل بالرغم من حسناته الكثيرة التى أعجب بها . هل يمكن لأحد أن يصدق أو يفترض أن شخصا كستالين وأعوانه الذين استعبدوا ما يقرب من ستمائة مليون من البشر والذين استعبدوا أكثر من ثلث العالم عن طريق التهديد واستعمال السوط والمقصلة ــ هل يستطيع انسان أن يفترض انه كان من الممكن وقف ستالين واعوانه عن أعمالهم الوحشية عن طريق عرض رأى أكاديمى علمى يقوله آنجل ــ وان صح ذلك فيمكنك مثلا أن توزع نشرة على عصابة من المجرمين المسلحين الذين يقطعون الطريق تحثهم فيها على ترك الجريمة مؤكدا لهم أن الجريمة لا تفيد . وكلا الموقفين سخيف . فالكلام المعسول لا يمنع وقوع الجريمة .

فيبلمان : هذه نقطة صائبة .. وأنا أريد أن أدافع عن السير نورمان من هذه الناحية ؛ فالحقيقة أنه كان بعيد النظر فى استعماله للألفاظ المناسبة . فقد كان من أقطاب علم السيمانتيك ، أى المعانى فى فقه اللغة ، قبل أن يظهر اسم هذا العلم فى اللغة الانجليزية . فنورمان هو الذى قال : ان المصطلحات اللغوية انما هى امتداد لظروف لم يعد لها وجود . وقال أيضا اننا ما زلنا نسير وراء الشعارات التى لا تعنى شيئا فى العالم الذى نعيش فيه ــ وكما تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة ــ حسب قانون جريشام ــ

فان الألفاظ الرديئة تطرد الألفـاظ الجيـدة ، والألفاظ التى يتكرر استعمالها على الدوام والكلمات ذات المضمون العاطفى تقيد العقل وتمنعه من العمل السليم ، وعندى أن هذه فكرة طيبة جدا ، ولم يلتفت اليها قراء كتاب آنجل مع أنها موجودة فيه .

بريزون : انها موجودة فعلا ، وانها لاشك هامة ، ولكننى لا أظن آنجل نفسه كان يعتبرها هامة مثلك يا سيد فيبلمان . وهذا هو السبب فى عدم وقوفنا عندها . وأظن أن السيد كارل محق حين يقول انك اذا قرأت سيرته الذاتية فانك مهما تتأثر بها فلن تعـدم الشعور بأن آنجل كان مخدوعا عن نفسه ، فهو يعتقد أن فكرته الرئيسية هى أن الحرب لا تفيد .

فيبلمان : ان حياة آنجل بقلمه كتاب غريب جدا . وكان يجب أن يسمى « الوهم العظيم وأنا » فانه يسرد تاريخ كتاب الوهم العظيم وشهرته . وعلى أية حال فان الكتاب بيعت منه أعداد ضخمة بعد أن رفضه جميع الناشرين أول الأمر ، ولكنه يصل الى نتيجة مؤداها أن رأيه الأساسى صائب ، وأنه قد فشل ، والذى حدث فعلا هو عكس ذلك تماما .

هل تظن اذن أن رأيه الأساسى كان خاطئا وأنه نجح رغم ذلك ؟

فيبلمان : اعتقد أن رأيه الأساسى كان خاطئا ، ولكنه كسب القضية بالفعل . فقد كان له تأثيره فى التطورات التى حدثت بعد ذلك ، كان له اتصـال مباشر بالرئيس ويلسون عن طريق الكولونيل هاوس الذى قد يكون هو الذى أقنع ويلسون بفكرة السلام ؛

اذ كان المقصود بعصبة الأمم أن تكون تعاونا بين الأمم وطريقا عاقلا لتسوية الخلافات . وانا أعتقد أن هذا رائع وأنه يستحق أكبر قدر من الثناء والتنويه .

برندسون : انى أوافقك يا سيد فيبلمان ، فأنا أعتقد أن آمال آنجل كانت أوضح من تفكيره . فانه لم يقل ان العالم سيصبح مليئا بالسلام والطمأنينة والحكمة والتعقل والخير بمجرد قراءة الكتب ، ولكن كان الاعتقاد السائد بين القراء أن هذا هو رأيه ، وأهم شيء صنعه للعالم هو انه جعل التفكير ديدن الناس (رجالا ونساء) ذوى النوايا الحسنة فى كل أرجاء العالم . فلقد ألقى بقنبلة كان لانفجارها أقوى أثر فى حمل الناس ذوى النوايا الطيبة فى كل مكان على التفكير فى هذه المشكلات الحيوية ، تلك المشكلات التى ان لم نوفق الى حلها فقد حق علينا الهلاك .

فيبلمان : لا مراء فى أن الأمور لا يمكن أن تسير تماما على النحو الذى تتوقعه ؛ ففى هذا الكتاب نظريات خاطئة . فمثلا يقول آنجل ان القوة المادية هى عامل هدام فى العالم .

بريزون : لقد بدأ فى تأليف هذا الكتاب حوالى سنة ١٩٠٨ .

فيبلمان : نعم لقد كتبه سنة ١٩٠٨ وبدأ الناس فى قراءته سنة ١٩١٠ ، وشهر هذا الكتاب وترجم الى عشرين لغة . وفيه يقول آنجل ان القوة تختفى من العالم ، وان المنازعات الدولية فى طريقها الى الاختفاء . ان الأمم المولعة بالحرب لا ترث الأرض.

وهذه نظريات خاطئة فى نظرى . ولقد أثبتته الحوادث عدم صحتها . ولكن هو كتاب طيب ذو أثر فعال ، وقد نجح مؤلفه فى أن يثبت الى حد ما نظرية الأمم المتحدة التى لا يختلف فيها أحد بفضل جهود هذا الرجل نورمان آنجل .

بريزون : اننى أود يا سيد فيبلمان أن أسألك سؤالا مباشرا : هل من الخير أن نسير على هدى رأى رجل كهذا ؛ رجل أقام نظريته كلها على حجج واهية ؟

فيبلمان : نعم . وكم أتمنى لو وجد فى العالم الكثير من أمثاله الذين أخطأوا على طريقته . فانى أعتقد أن الرجل كان مخطئا بطريقة رائعة . وعلى أية حال فان استعمال العقل لا يكفل لنا الصواب وانما هو يكفل لنا السير على النهج القويم . ومن هنا فانى أعتقد أن نورمان آنجل قائد عظيم حقا . أعتقد أنه أخطأ ، ولكن خطأه كان عظيما . وأعتقد أن دفاعه عن استخدام العقل فى السياسة وهداية المنظمات الى أهدافها الحقة لا الى مجرد اطالة عمرها ، هو بحق عمل رائع . وأظن أنه من الطريف أن سير نورمان قبل لقب « سير » ، ولكنه فى نفس الوقت رفض جميع المناصب الكبيرة التى عرضت عليه ، فانه لم يرغب فى أن يكون من رجال الحكومة ، وانما أراد أن يكون بعيدا عنها ، كما أنه لم يرغب فى أية مكافأة . لقد رفض فى اصرار وقوة جميع العروض التى قدمها الأثرياء لمعونته ، وذلك لأنهم آمنوا به وبجهوده ولكن سير نورمان كان يؤمن بنفسه . وهذه بحق روح عظيمة .

بريزون : ونحن نستطيع أن نسير على هدى هـــذه الروح العظيمة حتى ولو ارتكب آنجل أخطاء منطقية .

فيبلمان : بالطبع فانى لا أعرف أى قديس من أى مذهب ، الا ارتكب الأخطاء واعترف بها .

بريزون : انى أود أن أســألك يا سير كارل أنت ، وأنت رجل سياسة ، ما رأيك فى هذا الكتاب ؟

برندسون : أولا يا سيد بريزون أشعر أن آنجل كان بحق رجلا عظيما ، وكان له تأثير عظيم فى العالم الذى عاش فيه ، ولكن علينا نحن اليوم ، نحن الأحرار ، أن نتناسى جميع الشكوك النظـــرية فيما اذا كانت الحرب نافعة أم لا على الأساس الاقتصادى . هذه الشكوك التى لا أرى أن لها تأثيرا كبيرا فى العـــالم اليوم لدرجة اننا من الممكن اسقاطها من الحساب. ويجب أن نتذكر فى كل وقت أنه اذا لم نستعد فى هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ البشرية للدفاع عن الحضارة والحــــرية ، فانه من الممكن أن نخسر الاثنتين معا . وعندئذ تجل خسارتنا عن الوصف ، سواء من الناحية الاقتصادية أو غيرها . فلا بد لنا أن نسعى الى تحقيق ما دعا اليه آنجل نفسه ، وهو نظام عالمى توضع تحت تصرفه قوة كبيرة يكون التصرف فيها طبقا للقانون لا طبقا للأهواء . وهذا النظام لا يوجد اليوم ولا حتى فى الأمم المتحدة التى تتطلب تأييد جميع صائبى التفكير . ان أى شىء أقل من هذا النظام لا يكون له تأثير فعــال أبدا . يجب علينا أن نتذكر هذه الحقيقة ، وأن قيـــام منظمة كهذه يتطلب من جانب جميع الأمم صغيرها

وكبيرها حكم طرف ثالث ، ولكنى أخشى أن أعترف أن العالم ليس بعد مستعدا لهذا . ان فرصتنا اليوم للحفاظ على حياتنا وحريتنـــا هى أن نكون أقوياء بالقدر الكافى وسـ يعى الحركة بالقدر الكافى أيضا . اننا لم نصل بعد الى وضع سلطة فعالة فى خدمة القانون الذى يجب أن يحترمه العالم كله . وكل ما أستطعناه هو أننا لجأنا الى منظمـــات قوية ومحالفات ، ولكنها كلها حا [illegible] سية حتى يأتى اليوم الذى نستطيع أن نقيم فيه نظاما دوليا يستطيع بما يسانده من قوى أن يكفل الامن والنظام وتطبيق القانون فى كل أرجاء العالم .

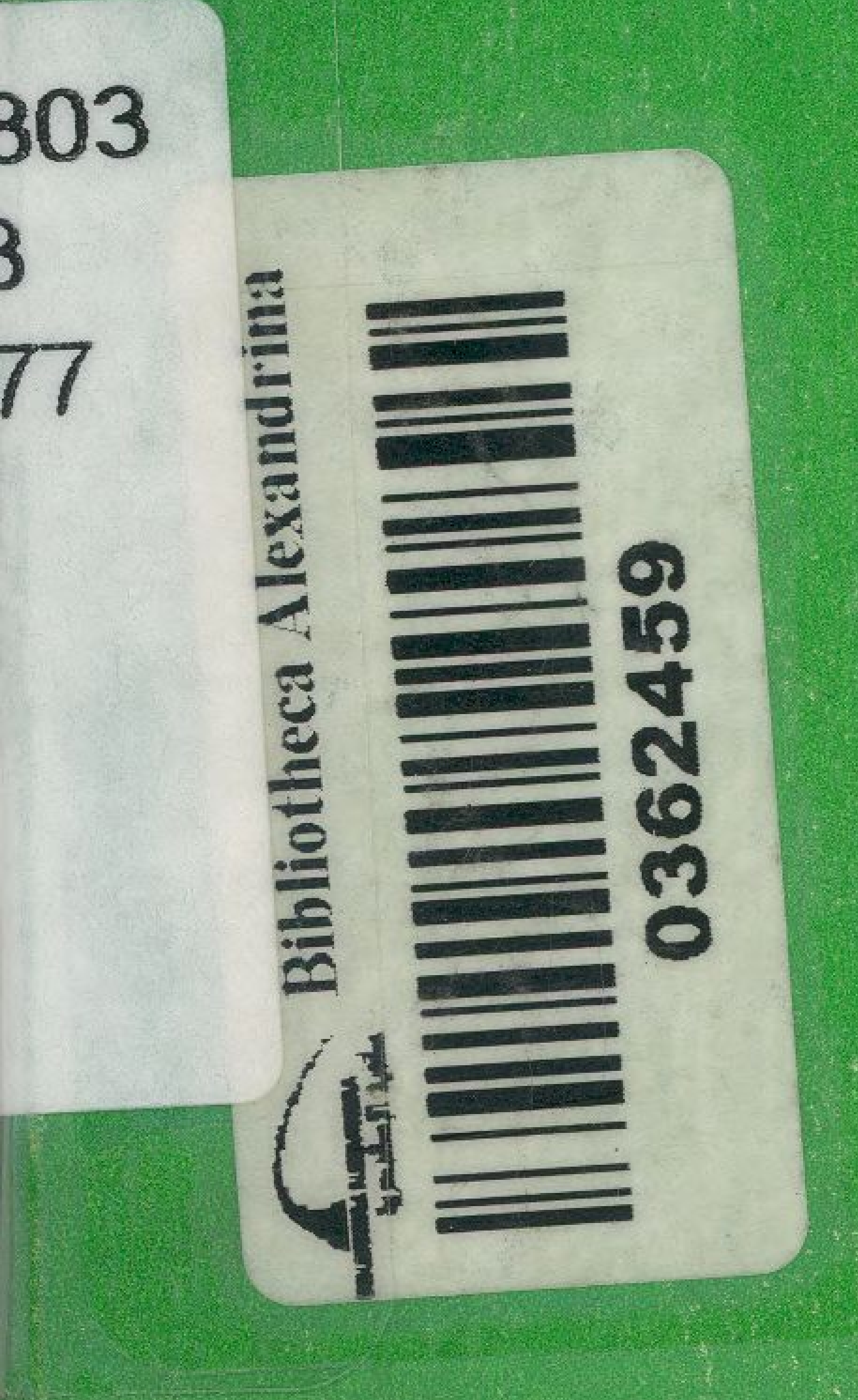
هذا الكتاب

بقلم

حسن جلال العروسى

اعتادت مؤسسة فرانكلين أن تقدم للقارىء العربى فى هذه السلسلة ـ حول مائدة المعرفة ـ مختارات وموضوعات أدبية عالمية لا تتقيد بزمان أو مكان ، وانما تهدف الى جمع أفضل ما كتب فى موضوع بعينه لكى تقربه الى الناس وتضعه نصب أعينهم .

والكتاب الذى بين أيدينا اليوم عنوانه : « الوان من الحروب » يتكلم عن الحروب تلك الكلمة التى تشغل أذهان الناس فى العالم كله من مشرقه الى مغربه ، ومن شماله الى جنوبه ... ولقد تناول هذا الموضوع بالبحث خمسة من كبار أدباء الدنيا ... اختلفوا مكانا وزمانا ، ولكنهم اجتمعوا حول فكرة واحدة . فهذا ثيوسيديدس يصور لنا الحرب التى دارت بين أثينا وأسبرطة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وها هو ذا فلوبير الفرنسى يتناول موضوع الحرب فى القرن التاسع عشر ، وكذلك آرنولد الانجليزى ، ولم يفت سرفنتيس ـ كاتب أسبانيا العظيم ـ أن يشارك فى الكتابة فى هذا الموضوع ، وأخيرا يقدم لنا آنجل ابن القرن العشرين خلاصة تفكيره ويشترك مع الأربعة الآخرين فى مناقشة هذا الموضوع الذى شغل الناس على مر السنين .



الدار القومية
سنة ١٩٦٥



الثمن ١٩ قرشا